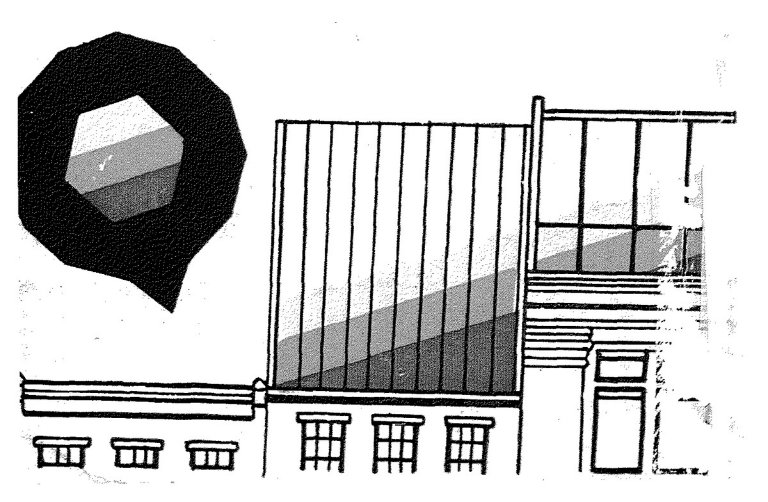
دانيل ج. بورستين

جمهورية التكنولوجيا

تأملات فى مجتمع المستقبل فى الولايات المتحدة الأمريكية

ترجمة : زغلول فهمى



جمهُوريّة التكنولوچيَا

جمهورية التكنولوچيا

تأليف : دانييل چ بورستين

ترجمة : زغلول فهمي

THE REPUBLIC OF TECHNOLOGY :
Reflections of our Future Community

By

DANIEL J. BOORSTIN

الناشر (مطبوعات كتابي) :
القـــاهرة : تليفون ٨٧٢٦٠٨

محتويات الكتاب

صفحة

مقدمــــة

ان امتنا تقل تميزا عاما بعـد عام . فالقـوى الجديدة التى اضفت طابعا خاصا على الحياة فى أمريكا هى نفسها التى تجعل فى كل عام حياة الناس ومصـائرهم فى كل مكان متشابهة . والعلم هو المعـين الدولى للمعرفة الذى لا يفتأ يزداد اتساعا . وهـو صحيح فى كل مكان بدرجة متساوية . ان التكنولوجيا لفظ مرادف للتجربة وهى اسم اطلق على تطبيقات العلم التى تسـمو فوق الحـدود السياسية واللغة والدين والتقاليد المحلية .

كانت كلمة « ثقافة » او « حضارة » فى الماضى تتناول الصفات الخاصة للحياة فى أحد أجزاء الكـرة الأرضية . وكان حب الثقافة فى موطن الانسـان يدعى « وطنية » . ولكن شكلها المرضى او الوبائى (وهو الأكثر شيوعا) ونعنى به الشوفينية او الخوف من الأجانب وكرههم ـ كان يتمثل فى عدم الثقة بالثقافات الاخرى او كراهيتها . و « التكنولوجيـا » تؤدى ـ بطريقـة ما ـ الى التغلب على هـذه العواطف أو تجاهلهـا . ومع أن الناس فى كافة أنحاء العالم قـد لا يحب بعضـهم البعض مثلما كانـوا يفعلـون فى الماضي ، الا أن اساليبهم فى الحياة تميل لأن تصبح اكثر تشابها . كما أن الأسئلة مثل « ماهو مستقبل الغرب ؟ .. أو الشرق ؟ » تصـبح بمضي الزمن أسئلة مهجورة ، ولا يبقى على المدى الطويل سوى سؤال واحد فقط ، يخص مسـتقبل الجنس البشرى .

ان الحروب الحديثة جعلت الدول المتعادية اكثر تشابها بصورة تفوق ما فعلته الحروب القديمة كما ادت التطورات العلمية التى ظهرت فى زمن الحرب ـ مثل « الرادار » والبحث عن الانشطار النووى وعن طرق واساليب اطلاق الصواريخ المدمرة ـ الى منافسة دولية (وتعاون) فى مجال « التكنولوجيا » ، مما ادى الى انتاج القنبلة الذرية والطاقة النووية و « التليفزيون » والسفر فى الفضاء والأقمار الصناعية الدائرة فى الفلك من اجل الاتصال وابتكارات اخرى لا تعد ولا تحصى . كل ذلك جعل ثقافات الأمم تتقارب وتتجمع مما أدى الى تقليل الاختلافات بين الدول الكبيرة والصغيرة .

أن التقادم والتغير التكنولوجيين السريعين (وكلاهما ظاهرتان حديثتان بصفة أساسية) قد قللا من الاختلاف بين الدولة المنتصرة والدولة المهزومة . كما زودا الدولة التي عانت من الدمار الهائل فى معدلاتها الانتاجية بميزة جديدة ساخرة . فاعادة بناء صرحها الصناعي بمساعدة الدولة المنتصرة يمنحها فرصة ممتازة لتسمو بنفسها فوق المستوى التكنولوجى للدولة المنتصرة .

قوى التكنولوجيا الساحقة هذه ـ التى تخلق التجانس فى ثقافة الجنس البشرى ـ هى نفسها التى مزقت المجتمع الدولى للأمم . فالشعوب التى لم تحظ قط بثقافة « قومية » ـ بسبب الفقر أو الاستعمار أو البعد عن المراكز العاصمية ـ تدافع الآن عن قومية ظاهرة . كما أن الوحدات القومية الكبيرة لم تعد تستطيع السيطرة بسهولة على الوحدات الصغيرة . ان الامم الصغيرة التى تلعب تليفزيونيا على مسرح العالم لكسب الاعجاب ، تطالب بالمساواة بالوحدات القومية العريقة الكبيرة ففى حين اتجهت الولايات المتحدة الى الأخذ بمبدأ « ان لكل شخص صوتا واحدا » ، اتجهت الامم المتحدة ـ التى تمثل المجتمع الدولى بأسره ـ الى الأخذ بمبدأ أن « لكل أمة صوتا واحدا » .

وما هى الأمة ؟ ان نصف الدول الجديدة التى انضمت الى الامم المتحدة منذ عام ١٩٤٥ ـ والتى يربو عددها على التسعين ـ

يقل عدد السكان فيها عن عدد السكان فى ولاية « كارولينا الشمالية » . وقد بدات القوميات الأولى ـ على خلاف القوميات التى ظهرت فى اواخر القرن العشرين ـ بتأكيد الآداب الشعبية القائمة منذ زمن بعيد ، والتواريخ المترابطة والمؤسسات المميزة والمصالح الدينية والاقتصادية او الثقافية المميزة والحدود التقليدية . ومع ذلك فان كلمة « أمة » صارت تفقد معناها يوما بعد يوم .

ومع هذا فان الامم القديمة ـ التى يجب أن تحصى من بينها الولايات المتحدة ـ مازالت تعيش يحدوها ايمان بتقاليدها الخاصة . ومن أعمق تقاليدنا القومية ان نكون امة دولية . ولما كانت أمتنا تمثل اعظم دولة متقدمة تكنولوجيا فى أواخر القرن العشرين ، فقد اصبحنا مركز اشعاع للقوى الموحدة للخبرة البشرية . غير ان الأيديولوجية ، والقبلية ، والقومية ، والروح الصليبية فى الدين ، والتعصب الاعمى ، والرقابة ، والعنصرية ، والاضطهاد ، وقيود الهجرة الى الداخل والى الخارج ، والتعريفات الجمركية ، والمغالاة فى الوطنية (السوفينية) .. كلها تضع سدودا وعوائق وان كانت مؤقتة . ولسوف تنتصر فى النهاية قوى التكنولوجيا التى تساعد على التقارب والتجمع . انها ستنتصر لعدة أسباب بدأنا الآن فقط فى اكتشافها . وسوف نفحص بعضها فى الصفحات التالية .

١ ـ جمهورية التكنولوجيا

هتف « ويليام دين هاولز » أمام القطعة الوسطى فى معرض فيلادلفيا الدولى ـ يوم الاحتفال بعيد الميلاد المئوى للدولة ـ قائلا : « رجل رياضى من الصلب والحديد ، ليست به اوقية واحدة من المعدن زائدة عن الحاجة ! » وقد ألهمه بهذه الكلمات ذلك المحرك البخارى الضخم « كورليس » الذى يزن سبعمائة طن . وكان يرتفع عاليا فوق قاعة عرض الآلات . وعندما قام الرئيس « بوليسيس اس جرانت » و « دوم بيدرو » امبراطور البرازيل ـ بجذب روافع التشغيل ـ فى ١٠ مايو ١٨٧٦ ـ هتف جمهرة من الناس فى ابتهاج حين أدار المحرك مجموعة « عجيبة » متنوعة من الآلات : لضخ الماء ، وتمشيط الصوف ، وغزل القطن ، وتقطيع القنب ، وطبع الصحف ، وطبع ورق الحائط ، وحياكة القماش ، وطى الظروف ، ونشر الكتل الخشبية ، وتشكيل الخشب ، وصناعة الأحذية . فقد انتشرت ثمانية آلاف آلة على مساحة تبلغ ثلاثة عشر فدانا .

وكان هذا المشهد الامريكى سببا فى انزعاج آخرين ، لاسيما الزائرين القادمين من الخارج . اذ صرح العالم البيولوجى الانجليزى « توماس هنرى هكسلى » قائلا : « لا يمكننى أن أقول أننى انبهرت على الاطلاق بكبر بلادكم أو بمواردكم المادية فى حد ذاتها . فالحجم ليس جلالا أو فخامة ، والأرض لا تصنع الأمة . ولكن القضية العظيمة التى يحف بها سمو حقيقى ـ ويجللها رعب من مصير ماحق ـ هى ما الذى ستفعلونه بكل هذه الأشياء ؟ » .

كان المحرك البخارى الضـــخم المخيف رمزا ملائما لمســتقبل امريكا ولكن .. لسبب غير الذى كان يتوقعه معظم المشاهدين . فان الآمال والفرص والانجازات والمخاوف والمثبطات غير العادية ، التى قامت كمعالم تشير الى جلال الأمة وفخامتها فى القرن الثانى من تاريخها ـ الذى بدات صفحته الآن ـ كانت اكثر جدة مما يستطيع أن يتخيله الزائرون لمعرض عام ١٨٧٦ . لم تكن هذه الأشياء وليدة الضخامة بل وليدة نوع جديد من المجتمعات . فثمة روابط جديدة سوف تربط الأمريكيين بعضهم بالبعض ، وسوف تربط الأمريكيين بالعالم الأوسع وتربط الدنيـــا بأمريكا . وانى أدعو هذا المجتمع **« جمهورية التكنولوجيا »** .

١ :

مجتمع مستقبلنا هـــذا لم يخلقه اى حشد من رجـــال الدولة . لم يكن له ميثاق مكتوب . ولم يكن يحكمه أي مجلس من السفراء . ومع ذلك فانه سيبلغ الحياة اليومية للمواطنين فى كافة قارات العالم . وستقوم الولايات المتحدة بالدور الرئيسى فى خلق هذا المجتمع وتشكيله .

انى استخدم كلمة « جمهورية » **Republic** كما استخدمها « توماس بين » ـ داعية الثـورة الأمريكية ـ فى كتابه « حقـوق الانسان » . لا بمعنى « شـكل معين للحكـومة » ، بل القضـية او الغاية التى من أجلهـا ينبغى ان تقام الحكومة .... ومعناها باللاتينية رسبوبليكا **Respublica** اى الشئون العامة أو الخير العام أو بمعناها الحرفى : « الشيء العام » . هذه الكلمة تصـف الشئون العامة المشــتركة بين الناس فى الدول المختلفة ومجتمع اولئك الذين يشتركون فى هذه الشئون .

فى اوائل العصور الحديثة ، كان علماء العالم الغربى يعـدون انفسهم اعضـاء فى « جمهورية الآداب » ، وهـذه الجمهورية هى مجتمع اولئك الرجال ـ فى كافة ارجاء العالم ـ الذين كانوا يقرأون

كتب بعضهم البعض ويتبادلون حولها الآراء . وبعد اختراع مطبعة « جوتنبرج » بزمن طويل ، وبدء عملية تكاثر الكتب وتشجيع نمو الاداب في لغة السوق ، بقي المجتمع محدودا . وكان « توماس جيفرسون » ـ مثلا ـ يعد نفسه مواطنا في هذا المجتمع العالمي ، بسبب ماكان يشترك فيه مع زملائه الأدباء والعلماء في فرنسا وايطاليا والمانيا واسبانيا وهولندا وغيرها من البلدان . وعندما قدم « جيفرسون » لأمته الشابة مكتبته الخاصة (التي كانت اساسا لمكتبة الكونجرس) وجد انها كانت تحوي كتبا كثيرة باللغات الأجنبية (بما في ذلك أعمال فولتير « الملحدة » المتعددة وكتاب آخرين من الثوار الفرنسيين) الى حد أن بعض أعضاء الكونجرس اعترضوا على شرائها . كانت « جمهورية الآداب » مجتمعا مختارا من اولئك الذين يتقاسمون المعرفة .

اما « **جمهوريتنا التكنولوجية** » فانها ليست أكثر ديموقراطية من جمهورية الآداب فحسب ، بل هي اقرب منها الى الأسلوب الامريكي . فأي فرد يمكنه ان يكون مواطنا فيها . وهي الى حد كبير من خلق الحضارة الأمريكية في القرن الماضي ، كما انها تعطي فكرة عن الحياة الأمريكية في القرن المقبل . وهي مفتوحة للجميع لأنها مجتمع ذو خبرة مشتركة .

وكان الانقلاب الصناعي الذي ظهر في انجلترا في القرن الثامن عشر وانتشر في أوروبا والعالم الجديد ، يقف وراء هذا النوع الجديد من المشاركة . وقد ادت « التكنولوجيا » التي تدفعها الطاقة البخارية والانتاج الضخم ـ الى وجود الواردات والصادرات على نطاق كبير ، ونعني بها السلع التي تحملها الى كل مكان شاحنات تسير بالبخار وعربات السكك الحديدية وشبكات السكك الحديدية العابرة للقارات . وقد تشابهت ـ أكثر من اي وقت مضى ـ طرائق الحياة اليومية ، مثل العربات التي يركبها الناس ، والاطعمة التي يتناولونها ، والأواني والأوعية التي يستخدمونها في المطابخ ، والملابس التي يرتدونها ، والمسامير التي تتماسك بها منازلهم ، والزجاج الذي يضعونه في النوافذ ـ كل هذه الاشياء

وآلاف أخرى من توافه الحياة اليومية اصبحت أكثر تشابها مما كانت فى اى يوم من قبل .. وتماثلت فى شكل جديد الأسلحة والادوات ـ البنادق والمسدسات والبراغى ومفاتيح الربط والمجارف والمعاول ـ بفضل ما يسمى بالنظام الأمريكى فى الصناعة (نظام الأجزاء القابلة للتبادل ، وهو يدعى احيانا نظام التماثل) والتلغراف والمطبعة التى تعمل بالطاقة ، والصحيفة ذات التوزيع الجماهيرى الكبير ، حملت كلها نفس المعلومات ونفس الصور للناس وهم على بعد آلاف الأميال . فاصبحت الخبرة البشرية بالنسبة للملايين اكثر تشابها بصورة فورية مما كان يمكن تخيله فى اى وقت مضى .

هذه الجمهورية التكنولوجية قد غيرت حياتنا مضيفة ـ « علاقة » جديدة بيننا وبين اخواننا الأمريكيين ، وعلاقة جديدة بيننا وبين العالم اجمع . ثمة قوتان فى العصر الحديث قد أثبتتا قدرة خاصة :

« التقادم الجديد » كانت القاعدة بالنسبة لمعظم التاريخ البشرى هى الاستمرارية كان التغير يمثل أخبارا مستجدة . أما الحياة اليومية فكان يحكمها التقليد . وكانت أكثر الأعمال قيمة هى اقدمها عهدا . فاذا أعمال المعمار العظيمة هى الآثار الباقية من الماضى ، واذا قيمة المفروشات ترتفع بعد ان تصبح عتيقة . ولم يتقادم العهد ابدا بالأدب العظيم . وقد قال عزرا باوند : « ان الادب يمثل اخبارا تظل جديدة » . وكان الجديد فى الأدب يثرى القديم ويثرى بالقديم . فشكسبير أثرى تشوسر وبرناردشو أثرى شكسبير . كان ذلك هو عالم الثابت من الأشياء والقابل للبقاء .

أما قوانين جمهوريتنا التكنولوجية فمختلفة تماما . ان اهمية العمل العلمى ـ كما قال ـ ذات مرة ـ العالم الرياضي الالمانى « ديفيد هيلبرت » ـ يمكن ان تقاس بعدد ما سبق نشره من الكتب التى اصبحت قراءتها غير ضرورية . ولكن العلماء والتكنولوجيين لا يجرؤون على ان ينتظروا صحفهم الدورية الاخيرة ، بل يجب أن يدرسوا « بروفات » المقالات قبل طبعها .

وأن يستخدموا التليفون للتاكد من ان عملهم لم يصبح قديما اثر ما اخترعه شخص آخر هذا الصباح .

ان جمهورية التكنولوجيا هى عالم التقادم . فمافذتنا المطبوعة المتميزة ليست عملا أدبيا خالدا ، بل ان صحيفة اليوم تجعل صحيفة الأمس غير ذات قيمة ، والأشياء القديمة تصبح ببساطة اشياء مستعملة ــ تعد للتجديد فى الموسم التالى . ان المكتبة العظيمة فى هذا العالم تتعرض لأن تبدو كمقبرة أكثر من ان تبدو كنزا . لقد هدم احد مبانى « لويس سوليفان » ليحل محله « جراج » للسيارات . ويبدو ان التقدم اصبح سريعا ومفاجئا وبالجملة .

اكثر الأشياء جدة هو موقفنا المتغير من التغيير . اذ يبدو ان الأمم الآن لا تتميز بتراثها او بمخزونها من الآثار (وهو ماكان يسمى ذات يوم بحضارتها) بل بمعدلها فى التغيير . ان الأمم « الآخذة فى النمو » سريعا هى الأمم التى سرعان ما يتقادم تراثها . فبينما استغرق بناء الحضارة قرونا ، بل الوفا من السنين ، فان تغيير أمة « متخلفة » يمكن أن يتم انجازه فى بضع عشرات من السنين .

والقوة الثانية هى « **التقارب الجديد** » : والقانون الاسمى لجمهورية التكنولوجيا هو التقارب ، الا وهو ميل كل شيء لأن يصبح اكثر شبها بكل شىء آخر . فقلما يوجد الآن تمييز بين الدول « المتحضرة » والدول « غير المتحضرة » . ونحن اليوم عندما نعتمد على التمييز بين الدول « المتقدمة » و « المتخلفة » او « النامية » نجد ان خبرة الشعوب جميعا تتقارب . وثمة معيار مشترك يمكننا من قياس معدل التقارب احصائيا ، هو مجمل الربح القومى ، والدخل السنوى للفرد ، ومعدلات النمو . وفى اعتقادنا ان كل فرد يمكنه ان يشارك فى الخبرة المشتركة حديثا .

ان الانسان ليس فى حاجة لأن يكون عالما او حتى متعلما ليشارك فى ثمار « التكنولوجيا » . فبينما يقتصر الاستمتاع بالمادة

المطبوعة على أولئك الذين يستطيعون القراءة ، نجد ان أى شخص يمكنه أن يحصل على الرسالة من « شاشة التليفزيون » ان القوى المغربة لخبرة كل يوم واقعة تحت اللسان وعبر اللسان . فالناس الذين ماكان يمكن اقناعهم مطلقا بقـراءة « جيتة » goethe يقودون بشغف سيارة « فولكس فاجن » .

والأدب العظيم الذى يجمـع بين بعض النـاس ، يقيم كذلك سدودا . فالآداب الكلاسيكية قد تغذى « الشيـوفينية » وتخلق الأيديولوجيات . والحـروب تميل الى تقوية القـوالب القوميـة وتجميـد « الايديولوجيات » . فعنـدما دخلت الولايات المتحدة الحرب العالمية الأولى ، توقفت مدارسها عن تدريس اللغة الألمانية، كما صار كل من « بيتهوفن » و « فاجنر » محظورا . ومع ذلك ، ففى تلك اللحظة كانت فرق البحث العسـكرية الأمريكية تدرس التكنولوجيا الالمانية . وبينما كانت « آنديرا غاندى » تفرض القيود على الصـحفيين الامريكيين والمنشـــورات الأمريكية ـــ من كتب وصحف ومجلات ـــ اخذت تحاول جاهدة أن تجعل « التكنولوجيا» الهندية اقرب الى الأمريكية . والتكنولوجيا تخفف ـــ بل تبدد ـــ الأيديولوجية .
فى كل حرب عالمية تصبح المنافسة فى مجال التكنولوجيا اكثر شراسة ـــ واكثر فعالية . ان تفتيت الذرة وارتياد الفضاء يشهدان على حافز المنافسة ، وتقارب الجهـود ، والتعاون اللاارادى بين الأعداء فى زمن الحرب . فالتكنولوجيا هى العدو الطبيعى للقومية.

التقـدم فى « التكنولوجيا » يقـرب بين الدول ، ويضـيق الإختلافـات بين خبرات شعوبها ، بحتمية ساحقة . فالدمـار فى الحرب الحديثة يميل الى تخفيض ميزان المزايا بين المنتصر والمهزوم وما يسر التقـدم الصناعى المذهل فى اليابان والمانيا ـــ بعد الحرب العالمية الثانية سوى الدمار الهائل الذى لحق بصرحيهما الصناعيين

كل خطوة الى الأمـام فى مجال التكنولوجيا الحديثة تقلل من الاختلاف بين درجات الخبرة القديمة . ولنأخذ مثلا التمييز الذى

كان أوليا ذات يوم بين النقل والاتصال : بين نقل الشخص ونقل الرسالة . فبينما كان الاتصال ــ ذات يوم ــ بديلا أدنى للنقل (كان عليك ان تقرأ الوصف لأنك لا تستطيع الذهاب الى هناك) أصبح الآن البديل المفضل فى معظم الاحيان . فشاشة التليفزيون (وهى طبقا للنوعيات التقليدية طريقــة من طرق الاتصـــال) تجمع بين الناس الذين لايزالون فى غرف معيشتهم المنفصلة . ومع زيادة زحام حركة مرور المدينة ، وظهور مشـــكلة مواقف انتظار السيارات ، واجراءات الحجز المطولة فى المطارات ؛ اصبحت شاشة التليفزيون طريقـــة ممتازة للذهاب الى هنـــاك . كذلك ، اذا ما تحولنا الى الاحداث العامة ، تجد نفسك الآن فى مواقعها برغم وجودك هنا ــ اكثر مما لو كنت هناك بالفعل !

لعل الاذاعة هى اقوى شاهد يومى على قــوى التكنولوجيا المقربة . فالاذاعة هى اكثر اشكال الاتصال العام ديمقراطيـــة ، اذ تقارب بين الناس وتجذبهم الى نفس التجربة بطرق لم تكن ممكنة قط من قبل .

كان التأثير الديمقراطى للتليفزيون مماثلا ــ على صورة لافتة للنظر ــ للتأثير التاريخى للطباعة . فقد شاهدنا ــ حتى منتصف القرن الأول للتليفزيون ــ قوته فى تسريح الجيوش وخلع رؤســـاء الجمهوريات ، وخلق عالم ديمقــراطى جديد .. عالم ديمقـــراطى بطرق لم يتخيلها احد قط من قبل ، حتى فى امريكا ــ ولا نستطيع أن نتجاهل ان العصر الذى أصبح فيه التليفزيون تجربة امريكية عالمية آسرة للانتباه ، هو أول عصر اســـتطاع فيه الأمريكيون ان يشاهــدوا فى الوان حية حركات الاعتصـــام ومسيرات الحقــوق المدنية ؛ هو عصر ثورة الحقوق المدنية وانتشار الاحتجاجات على نطاق لم يســـبق له مثيل . وكذلك هو عصر جديد لقــوة الاقلية وتدخل الرأى العام ــ القوى حديثا ــ فى الســياســـة الخارجية ؛ عصر معنى جديد أكثر انتشارا للحقــوق الدســـتورية فى تقـــديم العرائض وفى ازاحة رئيس الجمهورية الأمريكية . ان حرب فيتنام كانت أول حرب امريكية تمثل تجربة التليفزيون . كما كانت « ووترجيت » اول فضيحة قوميـــة سياســـية تمثل تجربة التليفزيون . وكانت

احتجاجات طلبة المدارس العليا فى الستينات أول أحداث جامعية غير رياضية تصبح تجارب تليفزيونية .

ان دعاة المساواة العظماء يذيعون الرسائل والصور التى تدخل منازل الفقراء والأغنياء ـ البيض والسود ـ الشباب منهم والمسنين دون تمييز. ان اكثر من ٩٦٪ من الأسر الأمريكية لديها على الأقل جهاز تليفزيون واحد . واذا امتلكت جهازا للتليفزيون فانك لا تكون مطالبا بأجر لدخول مملكة التليفزيون ولكى تحتل مقعدا اماميا لمشاهدة كل ما يعرض من عجائب . ما من اسئلة توجه ، وما من مهارة تطلب اليك ، بل لا حاجة بك لأن تجلس ساكنا او تلزم الصمت . ان الأميين مؤهلون للاستمتاع بما يعرضه التليفزيون شأنهم شأن المتعلمين ـ ولعلهم أكثر من المتعلمين اهلية لذلك ، حسب رأى بعض الناس . ان عصرنا الاذاعى هو ذروة ملائمة اذن لتاريخ امة نادت شهادة ميلادها بأن « الناس جميعا ولدوا متساوين » ، واستهدفت توفير كل شيء لكل فرد .

٢ :

الآن حصدنا ثمارا لا تعد ولا تحصى كمواطنين فى جمهورية التكنولوجيا الجديدة . ومستوانا المعيشى كأمريكيين اسم مألوف لهذه النعم اليومية . كما أن طول العمر المتزايد ، وتضاؤل الأوبئة ، واتساع التعليم ، وتخفيض عدد ساعات العمل ، وتوسيع المشاركة السياسية ، ووسائل الراحة المنزلية ، والحد من مضايقات الشتاء والصيف ، ونمو المدارس والكليات والجامعات ، وانتعاش المكتبات والمتاحف ، واتاحة فرص لم يسبق لها مثيل لارتياد العالم ـ كل هذه نتائج جانبية للتقادم الجديد والتقارب الجديد . لقد اصبحت هذه الأشياء مألوفة على صورة جعلت الناس تبخسها قيمتها . ولكن من الممكن ان تنمو ثمرة جديدة غريبة فى بساتين الفاكهة الخصبة التى يضمها تقدمنا التكنولوجى . واذا ما ظللنا على علم بالمخاطر غير العادية التى تحيق بمجتمع مستقبلنا ، فسوف يقل تعرضنا لفقدان هذه المنافع التى لم يسبق لها مثيل ، والتى اصبحنا ننظر اليها كأمر مسلم به .

ونذكر هنا بعض القوى العاملة فى « جمهورية التكنولوجيا » التى سوف تشكل حياتنا فى القرن المقبل .

التكنولوجيا تخلق الحاجات وتصدر المشاكل . سوف نضل الطريق لو اعتقدنا ان « التكنولوجيا » ستوجه أولا الى اشباع « المطالب » أو « الحاجات » أو الى حل « المشاكل » المعترف بها . لم يكن هناك طلب لايجاد التليفون أو السيارة أو الراديو أو التليفزيون . وليس من قبيل الصدفة أن امتنا ــ وهى أكثر الدول تقدما فى التكنولوجيا ــ هى ايضا أكثرها تقدما فى الاعلان : ان « التكنولوجيا » طريقة لتكاثر مالم يكن ضروريا . والاعلان طريقة لاقتناعنا بأننا لم نكن نعلم بما نحتاج اليه . ان العمل المشترك والتكنولوجيا والاعلان تخلق التقدم عن طريق خلق الحاجة الى ماهو غير ضرورى . فجمهورية التكنولوجيا التى سنعيش فيها هى عالم التغذية الاسترجاعية فيها ستخلق الحاجات ، لا عن طريق « الطبيعة البشرية » او عن طريق الحنين الذى يرجع الى قرن مضى ، بل عن طريق « التكنولوجيا » ذاتها .

التكنولوجيا تخلق القوة الدافعة ولا سبيل الى الرجوع فيها

لا شيء يمكن الا يخترع . هذه الحقيقة التراجيدية الكوميدية سوف تسيطر على حياتنا كمواطنين فى « جمهورية التكنولوجيا » . فعلى الرغم من أن اية اداة يمكن أن تتقادم ، فلا سبيل الى نسيانها او محوها من مستودع التكنولوجيا . وبينما يمكن وقف تيارات السياسة والثقافة أو تحريفها أو حتى الغائها ، فان التكنولوجيا لا رجعة فيها ولا سبيل الى الغائها . لقد حدث فى السنوات الاخيرة ان تحولت المانيا واليونان وبعض الدول الأخرى من الديمقراطية الى الديكتاتورية ، ثم عادت الى الديمقراطية مرة اخرى . ولكننا لا نستطيع ان نتذبذب بين مصباح الكيروسين والضوء الكهربائى . وعجزنا عن عدم الاختراع سيثبت أنه أكثر مشقة وازعاجا كلما تكاثرت تكنولوجيتنا وصقلت مزيدا ومزيدا من الحاجات التى لم يسبق تخيلها والتى تبدو عديمة الصلة بالموضوع . ولما كنا مدفوعين « بالحاجات » الى ما لاضرورة له ، فاننا نظل عاجزين عن ابعاد الحاجات عنا . ان مصباح علاء الدين

للتكنولوجيا يؤدي الى ظهور عشرات الآلاف من « الجنيات » الجديدة ، ولكنه لايملك ان يؤدي الى اختفائها . فالسيارة – برغم كل مانعرفه عنها من سلوك شيطاني – لايمكن ان تختفي بالسحر . واقصى ما يمكننا ان نفعله هو ان نبذل جهودا غير مجدية لتهدئة السيارة ، وذلك باقامة مبان لايداع السيارات فى الانتظار ، فوق عقار مختار من أرض المدينة ، واقامة ممرات علوية للمشاة أو انفاق . اننا نقود السيارة اميالا ، حتى اذا بلغنا المطار ، نمشى اميالا اخرى . . كل ذلك من اجل الظفر براحة الطائرة . وسياستنا القومية تتشكل طبقا لمطالب التليفزيون المستبدة باطراد متزايد ويبدو ان كل مفاوضاتنا مع « جنى » التليفزيون تنتهى باستسلامنا دون قيد أو شرط . فنحن نعيش وسوف نعيش فى عالم من الالتزامات اللا ارادية المتزايدة .

التكنولوجيا تستوعب . ان « جمهورية التكنولوجيا » وهى تعمل على المساواة بقسوة وبلا رحمة ، سوف تنجز مالم يستطعه الانبياء والفلاسفة السياسيون والثوار . انها تستوعب بالفعل الأزمنة والاماكن والشعوب والأشياء .. فهناك – مثلا – صور طبق الأصل ملونة بأمانة للموناليزا ، وهناك صوت وصورة فرانكلين روزفلت ، أو ونستون تشرتشل ، او غاندى . كما يمكنك ان تحتل مقعدا ممتازا فى سلسلة مباريات العالم فى ويمبلدون ، او فى اى مكان آخر . ان التكنولوجيا ترغمنا على المساواة فى خبرتنا أو تجربتنا دون حاجة الى تعديل دستورى او قرار من المحكمة العليا . والتجربة اليومية للامريكيين ستخلق متساوية أكثر منها فى اى وقت مضى – او على الأقل اكثر تشابها الى حد كبير .

التكنولوجيا تعزل وتفصل : بينما يبدو ان التكنولوجيا تجمع بيننا ، نجد انها لا تفعل ذلك الا بصنع طرق جديدة تفصل بيننا . فالعالم الواحد الذى سيعيش فيه الأمريكيون فى المستقبل ، سيكون عالما مؤلفا من مائتى وخمسين مليونا من المقصورات الخاصة : اذ ان التقدم الطبيعى للتكنولوجيا يبدأ من العربة التى يجرها الحصان ، الى عربة السكة الحديدية ، الى الراكب الوحيد فى السيارة المغلقة ، ثم الى راكب الطائرة المشدود بالحزام الى

مقعده ، والذى لا يستطيع ان يتحدث الى رفيقه الجالس بجانبه لأن كلا منهما يضع سماعة على أذنيه ليستمع الى الموسيقى المسجلة كما يبدأ التقدم الطبيعى للتكنولوجيا من أحد الوالدين وهو يقرأ للاطفال بصوت مرتفع ، الى المسرح الحى الذى يضم جمهورا حيا من المشاهدين ، الى دار الخيالة المظلمة ، الى المنزل الذى يحوى أجهزة تليفزيونية خاصة ، يومض كل منها فى غرفة مختلفة امام أحد أفراد الأسرة . وهذه هى المتواليات الطبيعية للتكنولوجيا . سيكون لكل منا آلته الخاصة المعدلة والمركزة والتى سبق اختيارها طبقا لذوقه الخاص . لقد بدأ « راديو كندا » يوفر لكل مواطن محطته الخاصة بالاذاعة والاستقبال . وسوف يتعرض كل منا لخطر الاختناق بأذواقه الخاصة . وفضلا عن ذلك ، فان هذه الأدوات التى توسع مدى بصرنا ورؤيتنا فى الفضاء ، يبدو — فى الحاضر — أنها تحبسنا على نحو ما . والتكنولوجيا الالكترونية التى تمتد فورا عبر القارات ، لا تكاد تساعدنا على عبور القرون .

« التكنولوجيا » تقتلع من الجذور ! فى « جمهورية التكنولوجيا » تقتلعنا بالفعل خبرة الحاضر وتفصلنا عن زمننا ومكاننا الخاص . لأن « التكنولوجيا » تهدف الى عزلنا وتحصيننا ضد المصادفات الغريبة والمخاطر والفرص فى مناخنا الطبيعى ومناظرنا الطبيعية العارية . فجهاز ازالة الجليد يجعل من المنحدر الجبلى الوعر — او من لسان نهر الجليد — طريقا بريا آخر . لقد انعم الله على بلادنا — امريكا — بتشكيلة من المناظر الطبيعية التى لا عدد لها ولا حصر ، ولكنا — سواء كنا فوق قمة جبل ، او فى صحراء ، او على ظهر سفينة ، او فى سيارتنا ، او فى طائرة — نكون فى مأمن يحمينا من المناخ والتربة والرمال والثلج والماء . ان جذورنا — كما هى عليه الآن — تنمو فى محلول مطهر اذيبت فيه بعض المواد المغذية . وبدلا من ان نستمتع بالجو الذى « وهبتنا اياه الطبيعة واله الطبيعة » (وهذا نص عبارة جفرسون) فاننا نهتم بالمرطب ومكيف الهواء .

ان الكثير من تيارات التغيير هذه تحملنا بعيدا فى مسار تاريخنا الأمريكى العظيم . لقد تحررنا من لعنة الأيديولوجية أكثر

العظيمة اسباب . فالتلغراف لم يخترع لان الناس أحسوا بالظلم لاضطرارهم الى نقل رسائلهم بالطرف البرية باليد أو على ظهر الحصان . واللاسلكى لم يظهر لأن الناس لم تعد تحتمل مد الاسلاك لتحمل رسائلهم . ولم يصنع « التليفزيون » لان الامريكيين يرفضون ان يقاسوا المهانة والازعاج لاضطرارهم لترك منازلهم والذهاب الى المسرح لمشاهدة « فيلم » او الى الملعب لمشاهدة مباراة فى الكرة . كل هذا واضح ، ولكن ربما قد فاتنا بعض دلالته. وباختصار ، فانه ليس أمرا تافها أننا ـ اذ نستطيع دائما استعادة احداث الماضى والتأمل فيها ـ نرى قوى ضخمة اجتماعية واقتصادية وجغرافية لاتفتأ تعمل . الا انه ليس للثورات التكنولوجية (على النقيض من الثورات السياسية) أسباب فى الحقيقة . ففى حين ان الثورات السياسية تميل لان تكون واعية وهادفة ، فان الثورات التكنولوجية تختلف عن ذلك تماما .

***

لكل ثورة سياسية نظامها القديم Ancien Régime ، ولذلك فلابد أن تنظر الى الوراء لترى ما يجب اصلاحه وتعديله .. حتى اذا كانت الآمال طوبائية ، فان برنامج العمل لهذه « اليوطوبيا » يصنف من المواد الخام للماضي القريب . فشعار الثورة الروسية عام ١٩١٧ ـ وهو « السلام والخبز والأرض ! » ـ يعلن فى ايجاز بارع ماكان يحس الفلاحون والعمال الروس بالافتقار اليه . وكان ذلك هو الوجه الآخر لشعار « الحرب والمجاعة والعبودية » ، الذى اتخذ وصفا للنظام القديم .

ولكن الثورات التكنولوجية بصفة عامة ، لا تأخذ معانيها واتجاهاتها من النظام القديم . بل انها تنشأ فى معظم الاحيان من لمحات عابرة الى ما يمكن ان يكون فى المستقبل ، وليس من حلقة متواصلة ممتعضة الى الماضي . انها لا تنشأ عن آلام البطون الخاوية بقدر ما تنشأ من التخيل الجذل ليتناول الفراولة المجمدة بسرعة فى الشتاء . ولاشك فى ان زمام الثورات السياسية يفلت عادة من أيدى أصحابها فتتجاوز دوافع القائمين بها . ولكن هناك عادة شخص ما يحاول ان يوجه الأحداث بحيث تحقق دوافع الثوار ، ويحاول ان يمنع الاحداث من ان تجمح . ولكن الثورات

٢ ـ نوعان من الثورات

لم يدرك الانسان : ان له تاريخا الا لجزء صغير من التاريخ البشرى . فخلال جميع السنوات تقريبا ـ منذ أن ابتكر الانسان الكتابة لأول مرة ، ومنذ أن بدأت الحضارة ـ فكر الانسان فى حياته وفى مجتمعه بطرق تختلف تماما عن تلك الطرق المألوفة لدينا اليوم . فكان يميل الى رؤية مرور الزمن لا كسلسلة من لحظات التغيير المفردة التى لا تعكس (لا سبيل لارتدادها للخلف) ، بل كتكرار للحظات مألوفة . وكانت دورة الفصول ـ الربيع والصيف والخريف والشتاء والربيع ـ هى أقوى وأعمق علامة لمرور الزمن . وعندما بحث الانسان عن معالم اخرى مفيدة فى الدورة ، كان من الطبيعى ان يختار أولا أوجه القمر ، لأنه كان من السهل ملاحظة الانتظام المطمئن للدورة القمرية نظرا لقصرها النسبى . وكان ذلك قبل التعرف على الدورة الشمسية التى اصبحت واسعة الانتشار بفترة من الزمن (وهى فكرة أكثر تعقيدا بكثير من الدورة القمرية) . بما يصاحبها من فكرة الدورة السنوية.

وفى ذلك العصر للزمن الدورى ـ قبل اكتشاف التاريخ ـ كان تكرار المألوف يوفر اطارا لأهم المناسبات واكثرها اثارة فى الخبرة البشرية . وكانت الطقوس الدينية تمثل تجديدا أو اعادة مختصرة للأحداث الأصلية القديمة . وفى اغلب الاحيان ، كان المفروض أن تلك الأحداث هى التى خلقت العالم . فالربيع لم يكن يمثل زمن المحاصيل الجديدة فحسب بل زمن الكون الذى تجدد خلقه . وكما كان القمر يولد من جديد فى كل دورة قمرية ، كانت السنة تولد من جديد من خلال الدورة الشمسية .

وكما كانت السنة المقدسة لا تفتأ تكرر الخلق ، فان كل زواج بشري كان ينتج الاتحاد المقدس للسماء والارض . وكان كل بطل يحيا مرة ثانية سيرة النموذج الاصلى الاسطورى ويسترد روحه. وثمة مثل مألوف باق لعصر الزمن الدورى قبل نشأة الوعى التاريخى ، هو يوم السبت لدى اليهود والمسيحيين . ففي الاسبوع سبعة أيام ، وبالاستراحة فى اليوم السابع نمثل مرة ثانية الايماءة الاولى للرب الاله عندما استراح فى اليوم السابع من الخلق استراح .... من جميع أعماله التى صنعها » (سفر التكوين ٢ : ٢).

ان الانسان القديم ـ كما يعبر عن ذلك ميرسيا الياد ـ كان يعيش فى «حاضر مستمر » ، حيث لا يوجد جديد فى الحقيقة ، وذلك « لرفضه قبول نفسه ككائن تاريخى » .

١ :

لعل : اعظم الثورات التاريخية جميعا ، هى اكتشاف الانسان ـ أو اختراعه ـ فكرة التاريخ . ومن الواضح انها لم تحدث فى اوروبا الغربية فى اى يوم بالذات ـ او سنة بالذات بل ربما فى قرن بالذات ـ بل حدثت ببطء ومعاناة . ولو توقفنا لنفكر لحظة ، فسوف نرى كم كان من الصعب بالنسبة لاناس يتالف عالمهم بأسره من كون من الفصول ودورات النماذج الاصلية وحركات البعث من الاساطير التى يعيشونها مرة ثانية . ومن الابطال الذين يتقمصونه أرواحهم .. كم كان من الصعب بالنسبة لهؤلاء ان يفكروا بطريقة تختلف كل هذا الاختلاف .

لم يكن ذلك سوى اكتشاف الانسان للجديد . .لم يكن أى نوع معين من الجدة بل امكانية الجدة فى حد ذاتها . كان الناس ينطلقون من المألوف الذى يحبونه للمرة الثالية ، ومن اعادة تمثيل النماذج الاصلية بما تحمل من معانى لا تفتأ تؤديها ، الى عالم الجدة التى لا تنتظر بخيال وتسودها الفوضى وربما الجدة القادرة.

متى حدثت هذه الثورة الأولى الحاسـمة فى الفكر البشرى ؟ يبدو أنها حدثت فى حضـارة أوروبا الغربية عند نهاية العصـور الوسطى ، وربمـا فى حوالى القـرن الرابع عشر . ان اسم « النهضـة » أو « الميلاد الجديد » فى حد ذاته Renaissance يكشف عن قوة الطرق القديمة فى التفكير وسـيطرة الدورات والميـلاد الجديد وتعبير عصر النهضـة أو « الميـلاد الجـديد » لم يستخدم بالفعل حتى القرن التاسـع عشر) لأنه العصر الذى اكتشـفت فيه الجدة وقدرة الانسان على الخروج من الدورات .

وتوجد علامات هذه الطريقة الجديدة في التفكير (كما أرخ « بيتر بيرك » فى كتابه احسـاس عصر النهضـة بالماضي) فى كتابات « بترارك » (١٣٠٤ ــ ١٣٧٤) الـذى اهتم هو نفسـه بالتاريخ وبالأنماط المتغيرة فى العملات والثياب والكلمـات والقوانين . كان ينظر الى بقايا روما لا كخلق عمالقة أسـطوريين بل كآثار عصر مختلف . وكان لورنزو فالا (١٤٠٧ ــ ١٤٥٧) هو رائد الثقافة التاريخية عندما اثبت أن « هبة قسطنطين » المزعومة كانت شيئا مزورا ، كما وضع أساسا للغويات التاريخية عندما اظهر فى كتابه « عن اللغة اللاتينية الرشيقة » العلاقة بين انحطاط الامبراطورية الرومانية وتدهور اللغة اللاتينية . كما بدأت لوحات « بييرو ديلا فرانشسـكا » (١٤٢٠ ــ ١٤٩٢) وآندريا ماتينيـا » (١٤٣١ ــ ١٥٠٦) تهجر المفارقات التاريخية الطائشة التى كان يستخدمها الفنانون السابقون ، فبذلا جهـودا جديدة فى تصوير الدقـة التاريخية فى الدرع والزى . ولم يعـد القانـون الرومانى الذى قدر له أن يحكم أوروبا ظاهرة فوق تاريخية فائقة . وبدأ النظر الى الانظمة القانونية الاخرى على أنها قادرة على التغيير . وفى انجلترا مثلا حيث كان المتخيل أن القانون العام ما هو الا قواعـد «لايتجه العقل البشري الى نقيضها»ـ بدأت قصص العصور القديمة تتلاشى . ومع قدوم القرن السابع عشر ، ساد الاعتقاد بأن التجديد عن طريق التشريع اصبح ممكنا . كمـا أن حركة الاصـلاح البروتستانتى أوجدت اهتماما جديدا بالمصادر التاريخية ، ومهدت الطريق لنوع جديد من انعام النظر فى الماضي .

٣ :

يقظة الاحساس بالتاريخ ــ التى فتحت عوالم جديدة وعوالم للجديد لم تخطر بخيال أحد ــ جلبت معها مشاكلها الخاصة . فكان لابد من العثور على أسماء أو مبتكرات للبدع المعينة أو لأنواع الجدة التى سوف يجلبها التاريخ . فان الروح الجديدة المحبة للاستطلاع ، والحالة النفسية الفضولية الجديدة التى ينظر بها الى الاحداث الجارية ، كانتا تحثان العلماء على النظر الى ما تحت السطح ، للبحث عن الاسباب الكامنة والدوافع الخفية غير المعترف بها . وكانت الجهود الاولى التى بذلت لوصف وتفسير التغير التاريخى لاتزال ترتكز بثقل على فكرة الدورات القديمة وقد قدم سير « توماس براون » ترجمة متأخرة لذلك فى حوالى عام ١٦٣٥ ، فى استعارة غنية مزخرفة .

« ان الاراء تعثر بالفعل ــ بعد دورات معينة ــ على رجال وعقول شبيهة بمن انجبها اولا ، كما لو كان هناك تناسخ فى الارواح . فروح شخص ما تنتقل الى اخر . ... ان الناس يحيون حياتهم مرة اخرى ، والعالم الآن كما كان منذ عصور مضت ... لان مجد دولة ما يعتمد على دمار دولة اخرى ، هناك دوران وتعاقب فى عظمة الدول ، ويجب ان نرضخ لتارجح هذه العجلة التى لا تحركها العقول (مثل الارواح التى حركت الكواكب) بل تحركها يد الله التى ترفع منزلة الجميع الى القمة وتخفضها الى القاع طبقا لفترات التذبذب المقدرة لها سلفا . لان حياة الافراد والبلدان على السواء بل حياة الدنيا كلها ، لا تجرى على لولب اخذ فى الاتساع ، وانما على دائرة حيث تنحدر ــ تبعا لمحورها ــ الى الظلام ، وتسقط تحت الافق حيث تختفى مرة ثانية » .

ولكن كلما صار الوعى التاريخى اكثر حيوية ، صار الخيال التاريخى اكثر حساسية وجراة ، ووجد مزيدا من الفنانين والعلماء والمحامين والمؤرخين ومسجلى الاحداث الذين يرون أن مرور الوقت هو التاريخ .

وبدات استعارة كلمات عديدة كان لها ــ فى وقت ما ــ

معنى مادى معين . واعطيت معانى متسعة لوصف العمليات فى التاريخ . ففى أوائل القرن السابع عشر (كما يكشف عن ذلك قاموس أوكسفورد الانجليزى) فاصبحت كلمة **دوران** Revolution - التى تصف حركة الاجرام السماوية فى مدار او فى مسار دائرى ، والتى صارت أيضا تعنى الوقت المطلوب لاتمام مثل هذه الدورة الكاملة - تستخدم كذلك مجازا بمعنى تغير هائل أو قلب لوضع الامور . وفى قرن تهزه الاضطرابات السياسية والاجتماعية Commotions (كما كانت تدعى فى بعض الاحيان) فتقلب الحكومات القائمة وتأتى بالقوة بحكام جدد ، أصبحت كلمة **ثورة** Revolution تعنى ما نفهمه منها فى القرن العشرين . وفى نفس الوقت تقريبا ، فان كلمة **تقدم** Progress - التى كانت حتى ذلك الوقت تستخدم استخداما مقصورا تقريبا لتؤدى المعنى المادى البسيط وهو الحركة المندفعة الى الامام فى الفضاء ، او الحركة المطردة فى القصة او الرواية - أصبحت ذات استخدامات جديدة . وفى الاصل ، لم يكن أى من هذين المعنيين مدحا . ولكن - فى أواخر القرن السابع عشر وأوائل الثامن عشر - أصبح من الشائع استخدام هذه الكلمة بمعنى التقدم الى مرحلة اعلى ، أو التقدم نحو ظروف أفضل فأفضل ، أى التحسن المستمر . كان ذلك هو عصر الاستنارة الانجليزية ، الذى ضم « جون لوك » « واسحق نيوتن » و « روبرت بويل » و « ديفيد هيوم » و « ادوارد جيبون » فلم يكن عجيبا أن يحتاج ذلك العصر الى اسم بمعنى التقدم ! وبنفس الطريقة ، ففى منتصف القرن التاسع عشر - كما أوضح أحد علماء فقة اللغة« شاع استخدم كلمة **سقوط** Decadence (وهى مشتقة من de + Cadere ومعناها « يسقط ») .. وكان من الواضح انها تعنى تدهورا ، وتفيد ضمنا نظرة علمية مستنيرة لهذا التدهور من جانب مستخدم الكلمة » .

ولم يكن القرن الذى اعقب عام ١٧٧٦ فترة ثورات عظيمة فحسب ، بل كان أيضا فترة ظهور كبار المؤرخين . فقد انجب هذا القرن - فى انجلترا - أعمال « ادوارد جيبون » ، « وتوماس بابينجتون ماكولى » ، « وهنرى توماس باكل » و « دبليو . اى . اتش . ليكى » . أما فى الولايات المتحدة ، فكان هو العصر

الذى ظهر فيه « فرانسيس باركمان » ، و « وليام هيكلنج برسكوت » ، « وجورج بانكروفت » ، « وهنرى آدامز » . وكانت الثقافة الغربية تنشد فى نشاط — بل حتى فى سعار — مفردات تصف بها عالم الابتكار الجديد . وكان المؤرخون يتمسكون عن طيب خاطر بالاستعارات ، ويطوعون المصطلحات الفنية ويمطون التشبيهات الجزئية ، ويمدون اللغات الاصطلاحية الخاصة بفروع اخرى من المعرفة فى بحثهم عن اسماء جديدة لتعريف العمليات التاريخية .

وظهر على المسرح عملاقان سيطرا على جزء كبير من كتابة الغرب وتفكيره فى التاريخ حتى يومنا هذا . ويرجع ذلك فى جزء منه الى حاجتهما الماسة الملحة الى المفردات ، وفى جزء آخر الى اسلوبهما الحى القوى ، وفى جزء ثالث الى موهبتيهما الفذتين فى استخراج أفكار عامة او مبادىء عامة . وكان اولهما بالطبع هو « تشارلز دارون » الذى قدم — فى عام ١٨٥٩ — كتابه « أصل الاجناس » . وفيه اورد — فى بلاغة فصحى وبيان مقنع — بعض الطرق الجديدة على صورة أخاذة ، فى وصف تاريخ النباتات والحيوانات . واشبع بطريقة رائعة حاجات الوعى التاريخى الجديد لدى الانسان ، لانه — على عكس علماء الاحياء السابقين — قدم طريقة لوصف وتفسير النشوء المستمر للأشياء الجديدة . لقد أدخل « دارون » العالم الحى بأكمله فى الدنيا الجديدة للوعى التاريخى . اذ أظهر أن لكل شيء حى تاريخا . ان لغة الاصطلاحية التى خرجت من عمله أو طعم بها عمله — مثل **« التطور »** Evolution **الاصطفاء الطبيعى** Natural Selection ، **او النضال من اجل البقاء »** Struggle for Survival **او « البقاء للأصلح** Survival of the Fittest — كل هذه التعبيرات وغيرها ثبت لمؤرخى الجنس البشرى **انهــا جذابة على صورة عجيبة .**

هناك اسباب كثيرة جعلت مفردات « دارون » جذابة . ولكن اقواها هو ابسطها . فقد قدم طريقة للتحدث عن التغيير تجعل من القبول نشوء الجديد فى التجربة وتظهر كيف أن انسلاخ القديم لابد أن ينتج الجديد .

كان القــرن التاســع عشر فى أوروبا مثل السابع عشر ، عصر « الاضطرابات السياسية والاجتماعية » فبعد الثورة الامريكيــة عام ١٧٧٦ ، والثورة الفرنســـية عام ١٧٨٩ ، أصبحت الثورة منتشرة . وكان « كارل ماركس » هــو الرجــل الذى ترجم علم الاحياء الى علم الاجتماع ، وهو الذى ترجم أصل الاجنــاس الى أصل الثورات .وقد اعترف صراحة بدينه لداروين . وعندما كانت الترجمة الانجليزيةللجزء الاول من كتاب«رأس المال Das Capital على وشك الظهور ، كتب « ماركس » الى « داروين » يستأذنه فى أن يهدى الجزء اليه . وكان جواب « داروين » ــ المثير للدهشــة ــ هو أنه رغم احساسه بالتشريف العميق لهذا الاهداء ، فانه يفضل الا يهديه « ماركس » هذا الكتاب لأن أسرتــه سوف يزعجهــا أن يهدى الى « داروين » كتاب ملحد على هذه الصورة !

ان داروين وماركس معا قدما المفردات التى ســــيطرت على كتابة وتفكير المؤرخين ــ سواء أكانوا ماركسيين أو معارضـــــين للماركسية ، شيوعيين أو معارضين للشيوعية ــ حتى وقتنا هذا .

ومنذ ظهور ماركس ، أصبح كل نوع من التغيير الاجتمــاعى يسمى ثورة . فأصبح لدينا « الثورة الصـــناعية » ، و « الثورة الجنسية » ، بل حتى ما يدعى « بثورة الغلاف الورقى للكتاب » . لقد أصبحت كلمة « ثورة »اختزالا لتضخيم أو تبجيل اى موضوع لقد أصبحت الثورة هى النموذج الاصلى (بل يمكننى حتى ان أقول أنها المقولبة) للتغيير الاجتماعى .

هذا يذكرنا بأن الجنس البشرى كان ــ بصفة عامة ــ أكثر نجاحا في وصف الملامح الملازمة لخبرته ــ مثل الحرب ، والدولة والكنيسة ، والمدرسة ، والجامعة ، والشركة ، والمجتمع والمدينة والاسرة ــ منه فى وصف عمليات التغيير . وكما وجد الانسان ــ وهو يستعرض ظواهر الطبيعة ــ انه من الايسط بكثير ان يصف أو يصور الاشياء ــ مثل الارض والبحر والهواء والبحيرات والمحيطات والجبال والصحارى والوديان والخلجان والجزر ــ التى تحيط به من أن يصف طرق تغيرها أو حركتها . وكما سبقتمعرفة الانسان

بالتشريح فهمه لعلم وظائف الاعضاء ، كذلك كان الحال بالنسبة للعملية الاجتماعية .

ان التغيرات السياسية ـ بما فيها الاطاحة بالحكام ـ تميل لأن تكون اوضح واسرع من التغييرات التكنولوجية فتلك الاعداد المحدودة من الناس الذين كانوا يستطيعون القراءة والكتابة ، والذين كانوا يحتفظون بالسجلات كانوا مرتبطين بالحكام ، فكانوا بالتالى على علم تام بالمصائر المتغيرة للأمراء والملوك .

ان التغير التكنولوجى السريع ـ ذلك التغيير الذى يمكن أن يقاس بعشرات السنين والذى يحدث فى فترة حياة الانسان ـ هو سمة العصور الحديثة . لم تكن هناك فى الحقيقة حاجة الى اطلاق اسم على التغير التكنولوجى السريع حتى بعد موجة الثورات التى هزت اوروبا ابتداء من منتصف القرن السابع عشر وعلى مدى القرن الحالى . وفى خلال هذه الفترة بالطبع ، أكتسب الناس وعيهم التاريخى . ولم تصبح كتابة التاريخ ـ وهى مهمة العلوم الاجتماعية الجديدة ـ مهنة واعية لذاتها الا أخيرا . كما ان كرسيى التاريخ الملكيين فى جامعتى « اوكسفورد » و « كمبردج » لم يقاما حتى القرن الثامن عشر . وفى جامعة هارفارد لم تقم أستاذية « ماكلين » للتاريخ حتى عام ١٨٣٨ . اما التاريخ الامريكى فلم يظهر على مسرح الجامعة الا بعد ذلك بوقت طويل .

واهم شىء اذن فى التكنولوجيا فى العصور الحديثة (وهى عهود معظم « الثورات » ذائعة الصيت على نطاق واسع) ليس هو اى تغيير بالذات ، بقدر ما هو تلك الظاهرة المثيرة والمتفجرة حديثا التغير فى حد ذاته . والتاريخ الامريكى ـ ولعله فى ذلك أكثر من تاريخ اية امة اخرى حديثة ـ قد اتسم بتغيرات فى الظروف البشرية .. اتسم بترتيبات سياسية جديدة ، ومنتجات جديدة ، واشكال جديدة فى الصناعة والتوزيع والاستهلاك ، وطرق جديدة فى النقل والاتصال . وعلينا اذن ـ لكى نفهم انفسنا وامتنا ـ أن نفهم عمليات التغيير هذه ، ونفكر مليا بطرقنا الامريكية المميزة فى تأملها .

أن عمليــة التغيير التكنــولوجى تختلف عن عمليــة التغيير السياسى فى نواح معينة واضــحة ، ولكنها حاسـمة . وســوف استكشف الآن ـ باختصار ـ هذه الفروق ، واقترح بعض نتائج انسياقنا لتجاهلها .

أولها ـ اذن ـ هى الدوافع (الأسباب) : يتحرك الناس نحو الثورات السياسية بدافع الاحساس بالمظالم (سواء أكانت حقيقية أم متخيلة) ، وبدافع الرغبة فى التغيير . يتحرك الناس لنفورهم من السياسات القديمة والأنظمة القديمة ، فتوقظهم رؤى الخلاص والاصلاحات والطوبائية . وقد كتب جيفرسون فى اعلان الاستقلال : « ان الحكمة فى الحقيقة ستملى (علينا) » .

« ان الحكومات القائمة منذ زمن بعيد لا ينبغى أن تتغير لأسباب هينة وزائلة . وتبعا لذلك ، فقد اظهرت كافة التجارب أو الجنس البشرى أكثر ميلا للمعاناة ، مادام الشر محتملا ، منه الى انصاف نفسه بالغاء الأشكال التى تعودها . ولكن ، عنــدما تثبت سلســلة من المفاسد والاغتصاب ـ تهدف دون تغيير الى نفس الغرض ـ ان هناك مخططا لاخضاع الجنس البشرى للديكتاتوريــة المطلقة ، فمن حقه ـ بل من واجبه ـ ان يطيح بمثل هذه الحكومة ويقدم حراسا جددا يحافظون على أمنه فى المستقبل . هكذا كانت المعاناة الصبور لهذه المستعمرات ، وهكذا تبدو الآن الضرورة التى تضطرها الى تغيير أنظمة الحكومة السابقة » .

كان ذلك اعلانا صريحا واضحا ـ بصورة مميزة ـ يمكن أن يكون مقــدمة لمعظم الثورات السياســية . فالثورة المجيدة التى حدثت عام ١٦٨٩ ، كان لها اعلان حقوق ، والثورة الفرنسية عام ١٧٨٩ كان لها اعلان حقوق الانسان ، وثورات عام ١٨٤٨ كان لها بيان رسمى شيوعى ، الى غير ذلك من الثورات . ويسير الحال على هذا المنوال . أما عن غرضنا الحالى ، فان فحوى مثل هذه الاعلانات اقل أهمية من وجودها ، والناس الذين بدأوا وتحكموا فى التغييرات السياسية بعيدة المدى يفكرون فى الاعلانات كطريقة يوضــحون بها أسباب ثورتهم .

ولكننا فى هذا المعنى نجــد انه ليس للتغيرات التكنولوجيــة

مما تحرر اى شعب آخر معاصر ، كما تحررنا فى الجمع بين الأمم ، وتحررنا فى الارتفاع فوق مستوى « الشوفينية » ، وتحررنا فى اخذ مفاتيحنا ــ للاستهداء لما يغلق علينا ــ من العالم البهيج غير المستكشف ولا المزدحم الذى يحيط بنا . لقد تجنبنا فى معظم الاحيان ذلك التجانس الوحشى الذى يسود معسكرات الاعتقال ، كما تجنبنا المعتقدات التقليدية الجارية ــ القابلة للتنقيح ــ عند وفاة ماوتسي تونج . ففى خلال القرنين الاولين من تاريخنا ، جعلتنا قارتنا الخام نتسم بالمرونة والاستجابة ولكن عالمنا الجديد يظل اكثر فجاجة واكثر بعدا عن الاستكشاف مما يمكن ان نعترف به .

ان « جمهورية التكنولوجيا » تتيح لنا الفرصة لنجعل القرن الثالث لدولتنا قرنا امريكيا فى بعض النواحى الجديدة . اننا لانزال معمل العالم . ونحب ان نجرب الجديد ، كما تفعل قلة من الشعوب الأخرى فى العالم . وسوف تستمر تجربتنا فى ربط شعوب من كل مكان فى العالم عن طريق الفرص ، وليس عن طريق الايديولوجيات . ان « جمهورية التكنولوجيا » تتيح للفرصة فرصا جديدة خيالية .

ان عالما ستخلق فيه التجربة متساوية يغرينا بطرق جديدة ، ويقدم لنا معضلات جديدة . هذه هى معضلات العالم الجديد فى القرن المقبل من تاريخنا . هل سنستطيع الاستمرار فى اثراء حياتنا بالكنوز القديمة المتينة والاستمتاع بتراثنا من مؤسسي دولتنا ، بينما تهب علينا رياح التقادم ، وبينما نتمتع بالمشاركة التى لا تفتأ تتسع ؟ هل سنستطيع المشاركة فى روح الاستكشاف ، ومحاولة الوصول الى المجهول ، والاستمتاع بتكاثر حاجاتنا ، والعيش فى عالم يكون الاعلان هو لغته المنمقة ، ويكون مستوى المعيشة فيه قد أصبح قانونه الخلقى .. ومع ذلك نتجنب أوهام الطوبائية ونعيش حياة فى حدود مرضية ؟ هل يمكن ان تبهجنا القوة الدافعة التى تجعلنا راغبين او راغمين الى ما وراء خيالاتنا ، ومع ذلك يتوفر لدينا بعض الاحساس بالسيطرة على مصيرنا الخاص .

التكنولوجية أكثر تهورا ، حتى اذا قيست بأكثر الثورات السياسية تهورا وسوء توجيه .

وثمة مثل نأخذه من الحرب العالمية الثانية . فمن وجهة نظر معينة : كانت الحرب فى أوروبا نوعا من الثورة .. ثورة عالمية ضد النازيين ، انتهت بالاطاحة بهم وابعادهم عن السلطة . وكان لهذه الحركة هدف معين ، وقد جرت فى مسارها ، اذ استسلم النازيون وحل محل النظام النازى نظام آخر أدان «جرائم الحرب» ، واجرى المحاكمات الخ . وبعد نشوب هذه الثورة ، بقيت « المانيا » لا تختلف جذريا من وجهة النظر السياسية — عن المانيا قبل النظام النازى . وكانت تلك نتيجة متعمدة لجهود السياسيين فى داخل البلاد وخارجها .

والآن فلنجر مقارنة بين هذا وما يدعى أحيانا بالثورة الذرية ، التى وقعت خلال هذه السنوات نفسها . ان قصة النجاح الذى حققته الولايات المتحدة فى الانشطار النووى المحكم (وهو الآن تاريخ مدعم بالوثائق) لا تترك مجالا للشك فى ان الدافع المسيطر ، كان هو تصميمها على تطوير سلاح حاسم تهزم به النازيين . ولكن العلاقة بين هتلر والانشطار النووى كانت عرضية للغاية . لقد جاء الانشطار النووى فى النهاية نتيجة للجهود المضنية غير المنسقة التى بذلها العلماء فى أماكن كثيرة .. فى المانيا والدنمارك وايطاليا والولايات المتحدة وفى أماكن أخرى . والنجاح فى انتاج الانشطار النووى المحكم ، وفى تصميم القنبلة ، أفرخ بدوره نتائج ثبت أنه لا سبيل الى التحكم فيها . ورغم ما بذل من جهود — لم تكن كلها فاشلة — لعقد اتفاقية دولية للحد من تطوير وانتاج وانتشار واستخدام الأسلحة النووية ، فان الذرة مازالت قوة تائهة فى العالم .

فالنتيجة الساحقة والواضحة للغاية اذن لهذا التقدم العظيم فى التكنولوجيا البشرية — الا وهو الانشطار النووى المحكم — لم تكن مجموعة من العواقب الرائعة والمرغوب فيها . بل فى الواقع ان النازيين كانوا قد استسلموا قبل اعداد القنبلة . والأحرى أن

القنبلة الذرية ـ كما لوحظ كثيرا ـ كان المفروض أن تنتج عنها عواقب مخيفة واسعة المدى ولا سبيل الى التنبؤ بها . انها ستعطى قوة جديدة للدول ، كما ستدمر قوة الدول ، بطرق مذهلة . لقد اثبتت الثورة الذرية أنها ثورة متهورة ذات نتائج واسعة المدى ، كما انها تهدد بعواقب تجعل تهور هتلر يبدو وكأنه « الحذر » ذاته . وحتى عندما يعتقد العلماء ان لديهم **أسبابا** لثورتهم التكنولوجية ـ كما أحس بذلك بالفعل آلبرت آينشتاين ، وهارولد يوراي وليو زيلارد وانريكو فيرمي وجيمز فرانك ـ فانهم يكونون مخدوعين .

ان الحقيقة المؤلمة والمبهجة بصدد التغيرات التكنولوجية الهائلة هي ان كل تغير (مثل اختراع الانشطار النووى المحكم) يبدو على صورة ما أنه قانون فى حد ذاته ، وانه يتمتع بتشرده الخاص الغريب .. بانطلاقه على غير هدى . كل تغير عظيم يخلق عالما جديدا بأسره ـ ولكننا لا نستطيع ان نتنبأ بقواعد أى عالم جديد بالذات الى أن يتم اكتشاف هذا العالم الجديد . فقد يكون مملوءا بكافة انواع المسوخ الغريبة غير المألوفة وقد يحكم هذا العالم منطق شيطاني . من الذى كان يمكنه ان يتنبأ ـ مثلا ـ بأن كلا من محرك الاحتراق الداخلى والسيارة سوف يفرخ عالما جديدا من الشراء بالقسط ، وبطاقات الائتمان ، والامتيازات الحكومية للشركات ، والاطرزة السنوية .. وانه سيعدل معنى المدن ، ويحول المذاهب الاخلاقية بالتحريض على أقامة قوانين جديدة للتعويض عن أخطاء غير مقصودة ؟

ان مسار التغيير السياسي يمكن التنبؤ به على صورة ما ، ولكن الحال ليس كذلك فى عالم التكنولوجيا ، حيث نكتشف لرعبنا أننا لسنا سادة بقدر ما نحن ضحايا . كل هذا راجع الى حد ما الى مسار المعرفة البشرية والخيال البشرى العجيب اللذين لايمكن التنبؤ بهما . ولكنه راجع أيضا الى كل سمات التاريخ المادى التى لم تكتشف بعد (كما يقول ذلك تاريخ الكهرباء والاتصال اللاسلكى والراديو والالكترونيات والترانزيستور الخ) . هذه السمات سوف تعيد خلق عالمنا ، وتعمره بمخلوقات لم نتخيلها أبدا .

ثمة تمييز كبير آخر يتعلق بالطريقــة أو الكيفية . فليس من المستحيل ان نجدع معا بعض التعميمات المساعدة الخاصة بطريقة احداث الثورات السياســية . ان بعض التعميمات المألوفــة فى الأزمنة الحديثة هي تلك التى قدمها فرانسيس بيكون و «مكيافيلى» و « مونتسكيو » و « جفرسون » و « جون آدامز » و « ماركس » و « لينين » و « ماوتسي تونج » فالثورات السياســية فى الأزمنة الحديثة تمثل النتيجة النهائية للتخطيط الطويل الحذر نحو أهداف محددة ، ولاجتماعات سرية لا حصر لها ، ولاجتماعات علنية عديدة حاشــدة ، ولتشــكيل تعاونى تجاه هدف معلن . فالعــزم المنظم للوصول الى الهــدف والتركيز والوضوح وتحديد الأهــداف .. **كلها عوامل حاسمة .**

ان الأساليب العامة المتبعة لاحــداث ثورة سياسية ــ بما فى ذلك الدعاية والتنظيم وعنصر المفاجأة واستخدام الحلفاء الأجانب والاستيلاء على مراكز الاتصال ــ كل هذه الاساليب لم يطرأ عليها سوى تغيير ضئيل خلال قرون ، برغم ان الوســائل المحددة التى كانت تنجز بها هذه الأساليب قد تغيرت تغيرا واضحا . وقد لاحظ « جــون آدامز » ــ الذى لم يكن يعرف ســوى شيء أو اثنين عن كيفية احداث الثورات السياســية ــ واشــار بقسوة بعد الثورة الامريكية الى مــدى ضــآلة الزيادة فى معرفة الانســان بعملياته السياسية الخاصة . فقد قال آدامز عام ١٧٨٦ : « فى مثل هــذا الصفاء العام ــ أو بالأحرى اصلاح السلوك والتقــدم فى العــلم ــ اليس من الأمور غير القابلة للتعليل ان المعــرفة بمبادىء الحكومات الحــرة وبنائها ــ تلك المبادىء التى عمق فيها الاهتمام بســعادة الحيــاة بل وبمزيد من التقــدم فى التعليم والمجتمــع والمعــرفة والفضــيلة ــ تظل باقية فى جمــود كامل لمدة الفين أو ثلاثة آلاف عام ؟ » وذهب الى القول بأن مبادىء العلوم السياســية « كانت مفهومة فى زمن صهيل حصان داريوس ، كما هى مفهومة الآن » . ثم ألمح فى شيء من الحزن الى ان الحكمــة القديمة فى هــذه الأمور كانت لاتزال مطبقة .

ان التغيرات الكبيرة فى التكنولوجيا ــ فى عالم المعرفة العلمية المتقدمة نفسها ، والادراك التكنولوجى المتزايد ــ مازالت من ناحية ظاهرية التناقض ، غامضة ولا سبيل الى التنبؤ بها (كما كانت دائما) . ان جانبا كبيرا من الاشباع فى قراءة التاريخ **السياسي** ، وخاصة تاريخ الثورات السياسية ، يتأتى من رؤية الرجال وهم يطلبون أهدافهم الكبيرة ، ومن رؤيتهم وهم يستخدمون أساليب مالوفة الى حد ما ــ ثم مشاهدتهم وهم ينجحون أو يفشلون ــ بصورة يمكن ادراكها ــ فى مشروعهم الكبير هذه هى عناصر المطامح المحبطة والآمال المخيبة فى التراجيديا الملحمية العنيفة . ولكن قصص التغيرات التكنولوجية العظيمة ــ حتى عندما نسميها ثورات ــ تختلف تمام الاختلاف . ففى معظم الأحيان يتعذر أن نعرف ما اذا كان المجهود الذى بذل فى التجديد التكنولوجى هو من التراجيديا أو الكوميديا او الفوضى الضاربة .. ما اذا كان يبشر بالحظ الحسن ، أو ينذر بالحظ السىء . فكيف لنا مثلا أن نقوم الاختراع والصنعة والانتشار العالمى للطائرة ، او التليفزيون ؟

وعلى حين بقيت انماط التاريخ السياسى فى شكل تراجيديات شكسبير ومسرحياته التاريخية (ليس هناك سوى تغييرات بسيطة فى النظام السياسى لا يمكن أن ترى فى قالب كاريولانس والملك لير وريتشارد الثانى وريتشارد الثالث ومكبث أو غيرهم) فان تاريخ التكنولوجيا (برغم بعض الجهود الشجاعة والخيالية التى بذلها علماء الاجتماع والمؤرخون) يبدو على النقيض " وكأنما ليس له نمط معين وثمة جانب كبير من الاثارة فى هذه القصة ينشأ من المصادفة المدهشة ، ومما لا يمكن تصوره ، ومن التافه من الأمور ــ من عبث الصبى ماركونى بلعبته ، ومن الملاحظة العابرة لمدام كورى ، ومن الحادث السعيد الذى وقع لسير آلكساندر فلمنج ، ومن مناسبات اخرى لا تعد ولا تحصى ، تتسم بنفس الغرابة وعدم امكان التنبؤ بها .

حتى مختبر البحث والتنمية الأمريكى فى منتصف القرن العشرين ــ ولعله يمثل أكثر جهود الجنس البشرى تنظيما وتركيزا فى تشجيع التغير التكنولوجى ــ يعتبر مكانا للتساؤل المبهم بصورة مثمرة . وقد قال « ويليس آر . هويتنى » المؤسس الرائد

للمختبرات الكهربائية العامة موضحا : « ان توجيه البحث يتابع فرص الأفكار الجديدة المقبولة . فهو يراقب نمو الفكرة فى عقول وأيدى الباحثين الحريصين . حتى الرائد العقلى الوحيد يوغل بعيدا فى المجهول بصفة عامة الى حد ان الموجه المزعوم ما عليه الا أن يتابع — فى سعادة — الطرق الجديدة المتاحة له . ان كافة الطرق الجديدة تتكاثر وتتفرع أثناء تقدمها » . مختبر البحث الحديث اذن — كما قال « ايرفنج لانجموير » ليس مكانا لتنفيذ مهام معينة، بقدر ماهو مكان يمارس فيه الرجال « فن الاستفادة من الأحداث غير المتوقعة » . لاشك ان أمهر مديرى تهيئة الثورات السياسية — مثل سام آدامز و روبسبيير ولينين — كان عليهم ان يعرفوا كيف يستفيدون من الأمور غير المتوقعة ، ولكن ذلك كان دائما لمساعدتهم على الوصول الى غاية سبق تحديدها .

اما المبتكر التكنولوجى الألمعى — من الناحية الأخرى — فلا يفتأ يبحث عن غايته . فهو يترقب الأسئلة الجديدة . وبينما يراوده الأمل فى أن يجد حلولا جديدة ، اذا به يظل يقظا ليكتشف ما اذا كان ما يتصوره حلولا ليس الا مشاكل جديدة فى الحقيقة . ان الثورات السياسية تقوم على ايدى رجال يطالبون بعلاجات معروفة لأدواء معروفة . أما الثورات التكنولوجية ، فيقوم بها رجال يجدون اجابات غير متوقعة لأسئلة لا تخطر بخيال أحد . **وبينما يبدأ التغيير السياسي من المشاكل ، فان التغير التكنولوجى يبدأ من البحث عن المشاكل** . وكما يمدنا علماؤنا وتكنولوجيونا المغامرون الى اقصي الحدود بحلول ، فان مجتمعنا يواجه طرقا لمنع الاستخدامات المكتشفة حديثا للحلول (وعلى سبيل المثال : الاستخدامات الجديدة للمواد المصطنعة — غير القابلة للاحتراق — لأغطية الفراش وثياب النوم ، وورق السلوفان لتغليف الطرود ، واحتراق البنزين لتسيير المركبات ، « والبلاستيك » للأوعية التى تطرح بعد الاستعمال . . ان مجتمعنا يواجه طرقا لمنع الاستخدامات المكتشفة حديثا كحلول من ان تصبح هى نفسها مشاكل جديدة .

لاشك ان هناك بعض الأمثلة الواضحة — كبناء أول قنبلة ذرية ، أو محاولة وضع انسان على القمر — حيث يكون الغرض

محددا ، وحيث يشبه التنظيم المشروعات السياسية . ولكن هنا ايضا نجد سمات خاصة : منها احساس القوة الدافعة ، والحركة التى تنشأ من حجم المشروع ، وكمية الاستثمار ، وعدم امكان التنبؤ بالمعرفة .

اذا نظرنا الى الوراء ـ اذن ـ الى الثورات السياسية العظيمة والثورات التكنولوجية العظيمة (وكلتاهما مفتاحان لسلسلة قدرات وامكانيات الجنس البشرى) فاننا نرى تناقضا لافتا للانظار . فالثورات السياسية ـ بصفة عامة ـ قد كشفت عما فى الانسان من قدرة هادفة منظمة ، وعن ضميره الاجتماعى واحساسه بالعدل ـ وعن الجانب العدوانى الجازم فى طبيعته ـ اما التغيير التكنولوجى والاختراع والابتكار ، فكلها تميل الى الكشف عن غريزة اللعب فى الانسان ، وعن رغبته وقدرته على الذهاب الى حيث لم يذهب قط من قبل ، وعلى اتيان مالم يأته قط من قبل . فالأولى تظهر استعداده للتضحية من اجل تنفيذ خططه ، والثانية تظهر استعداده للتضحية من أجل متابعة بحثه . ان كثيرا من النجاحات الغريبة والمشاكل الخاصة فى وقتنا هذا ، تنشأ مما نبذله من جهود لاستيعاب هذين النوعين من الأنشطة . لقد حاولنا ان نجعل الحكومة اكثر تجريبية ، وفى نفس الوقت أن نجعل التغيير التكنولوجى اكثر فائدة واكثر تركيزا واكثر تخطيطا منه فى اى وقت مضي .

هذان النوعان من التغيير ـ السياسي والتكنولوجى ـ لا يختلفان فى اسبابهما وفى طريقتهما فقط بل ايضا فى نتائجهما . واعنى بهذا الطابع الخاص لنتائجهما . فالثورات السياسية ـ فيما عدا بعض الاستثناءات الواضحة ـ تميل لأن تكون **استبدالية.** اذ حلت جمهورية « ويمار » محل المانيا الامبراطورية ، وحل النازيون محل جمهورية « ويمار » . وبعد الحرب العالمية الثانية ، حلت جمهورية جديدة محل النازيين . هذا هو ما نعنيه عادة بالثورة السياسية . وفضلا عن ذلك فان الثورات السياسية الى حد مدهش **قابلة للارتداد** . ففى دنيا السياسة ، بوسعنا ان نرجع لما كنا عليه . من الممكن ـ بل حتى من الشائع ـ بالنسبة لنظام

جديد ان يعود مرة اخرى الى آراء ومؤسسات نظام قديم . وكثير مما يسمى . ثورات هو فى الحقيقة **احياء لانظمة قديمة** . والظاهرة المألوفة للثورة المضادة هي محاولة قلب مسار التغيير . بل ان من مجالات الجدل ان الثورات المضادة تميل عادة لأن تكون اكثر نجاحا من الثورات ذاتها . فالرجعى ــ الذى يكون هدفه دائما اقرب الى الادراك وايسر فى الوصف ــ نجده لذلك أكثر قابلية للنجاح من الثورى . وامكانية حدوث مثل هذه الارتدادات هى التى أضفت الثقة على نظرية البندول فى التاريخ ، وهى نظرية مضللة الى حد كبير ، وقد اشتهرت فى هذه الأيام باسم « الحركة الارتجاعية »
Backlash

غير ان التغيرات التكنولوجية تنتعش فى عالم مختلف . اذ ان التغييرات التكنولوجية الهامة والخطيرة لا تكون عادة استبدالية أو ارتدادية . فالابتكارات التكنولوجية بدلا من ان تحل محل أدوات اخرى سابقة ، تميل بالفعل لأن تخلق أدوارا جديدة لهذه الأدوات التى قد تبدو ــ فى أول الأمر ــ أنها تحل محلها . فعندما أدخل التليفون ــ فى اواخر القرن التاسع عشر ــ افترض بعض الناس أنه سيجعل رجل البريد شيئا مهملا ومهجورا (وذهب البعض للتنبؤ بأن دائرة بريد الولايات المتحدة سوف تكون بالية وعاجزة قبل تمام نضوجها) . وبنفس الطريقة ، تصور بعض العقلاء ــ عندما ظهر اللاسلكى ومن بعده الراديو ــ ان تلك هى نهاية التليفون . وعندما ادخل التليفزيون ، تعددت الأصوات التى تندب وفاة الراديو . ومازلنا نسمع أمثال « كاساندرا » وهو يقول لنا فى كآبة ووجوم ان التليفزيون يعنى موت الكتاب . ولكن فى وقتنا هذا ، أتيحت لنا الفرصة كى نلاحظ كيف ولماذا كانت هذه التنبؤات واهية وقائمة على غير اساس منطقى . لقد رأينا التليفزيون (وكذلك السيارة) يمدان الراديو بأدوار جديدة . كما رأينا ــ اخيرا جدا ــ كيف ان كليهما قد خلقا أدوارا جديدة (أو أديا الى الانعاش الجديد للأدوار القديمة) بالنسبة للصحف ، ولاشك ان كل هذه الأشياء قد خلقت أدوارا ملحة بصورة جديدة للكتاب .

وثمة سمة مميزة للتغييرات التكنولوجية الهامة ، هي انها لا تميل لأن تكون ارتدادية . لي صديق يقيم في نيو انجلند لم يدخل بعد التليفون في منزله ، لأنه يقول انه مازال ينتظر ان يبلغ الكمال . وهناك قلة من أصدقائي العلماء (وصدق او لا تصدق ان بعضهم من الباحثين والكتاب والنقاد البارزين فيما يتعلق بالحضارة الأمريكية) لا يزالون يرفضون في عناد ـ لأسباب أقل بوجاهة ـ أن يكون لديهم في المنزل جهاز تليفزيون . من ذا الذي امتلك التليفون في يوم من الأيام يود ان يستغني عنه الآن ، او من وضع في منزله جهازاً للتليفزيون ذات يوم ولم يعد يقتنيه الآن ؟ ليس هناك نظير تكنولوجي للارتدادية السياسية او الثورة المضادة هناك طبعا تغييرات في الأسلوب ، ولاشك في ان للقديم والمهجور سحرا دائما . اذ انني آمل ان يكون هناك دائما بعض الأفراد المتحمسين « للبساطة الاختيارية » . ولكن رومانسيتهم المسرفة تذكرنا ـ ببساطة ـ بأن مسيرة الحياة لا تنثني ولا يمكن أن تتراجع ـ ففي فرنسا ـ مثلا ـ نجد ان القرن الذي أعقب ثورة ١٧٨٩ كان يمثل ذبذبة للثورات والأنظمة القديمة . فكانت رؤوس الأرستقراطيين تقطع وكانت الأحزاب تفقد سلطتها بالتصويت ، ويتم التخلي عن « الأيديولوجيات » القديمة . ولكن خلال هذه السنوات ذاتها ، كان اتجاه التغير التكنولوجي واضحا وغير قابل للارتداد . فالثورة الصناعية ـ على خلاف الثورة الفرنسية ـ لم تنتج عنها ثورة مضادة قوية ، بالرغم من ظهور شخص مثل « وليام موريس » بين الحين والحين .

وفي النهاية ، يتبقى اختلاف حاسم بين قدرتنا على تخيل الثورات السياسية في المستقبل ، وتخيل الثورات التكنولوجية المقبلة . لعل هذا على أقل تقدير هو أهم فارق بين عالمي السياسة والتكنولوجيا . واني لأصف عدم ملاحظتنا هذا الفارق بأنه «مغالطة التسلسل الكاملة » ، وهي بالانجليزية gamut Fallacy ، و gamut مشتقة من كلمة « جاما » gamma في اليونانية ، وتعني أخفض نغمة في السلم الموسيقي القديم ، اما في الانجليزية فتعني التسلسل الكامل لأي شيء . فعندما نفكر في مستقبل حياتنا السياسية والأشكال الحكومية ـ مثلا ـ يمكن ان يخطر ببالنا ـ بصفة أساسية ـ التسلسل الكامل للامكانيات . هذا

بالطبع ، هو الذى يثبت صحة الحكمة التقليدية للنظرية السياسية. فهى توضح ما يمكن ان نسميه « قانون جون آدامز » (الذى سبق أن أشرت اليه) الا وهو ان الحكمة السياسية لا تتقدم بصفة اساسية . لا عجب أن التناظر الفلكى للدوران Revolving (وهو المعنى الأول لكلمة الثورة Revolution) كان مغريا الى حد كبير !.

ولكن تاريخ التكنولوجيا قصة أخرى تماما . فلا يمكننا ان نتصور — أو حتى نتخيل — سلسلة البدائل التى سوف يصنع منها تاريخ التكنولوجيا فى المستقبل . ومن أحكم أنبيائنا فى هذا المجال ، « آرثر سي . كلارك » ، مؤلف كتاب « عام ٢٠٠١ » وتأملات اخرى . ان كلارك يمدنا بحساب تقريبى لتقييم نبوءات مستقبل الانسان . ففى كتابه « **لمحات عن المستقبل** » (بعد تقديم بعض الأمثلة المبينة لنبوءات الخبراء الذين أثبتوا بما لا يدع مجالاً للشك ان الذرة لا يمكن ان تنشطر ، وان النقل الاسرع من الصوت أمر مستحيل ماديا ، وان الانسان لا يستطيع مطلقا الافلات من مجال الجاذبية الأرضية ، وانه بالتأكيد لا يستطيع مطلقا أن أن يبلغ القمر) نجده يقدم لنا « قانون آرثر كلارك » الذى ينص على مايلى « عندما يقول عالم ممتاز ولكنه كهل ان شيئا ما ممكن الحدوث فهو محق فى ذلك ، فيما يشبه التأكيد . وعندما يقول ان شيئا ما ضرب من المحال ، فمن المحتمل جدا ان يكون مخطئا » .

هذه هى طريقة « كلارك » فى تحذيرنا مما سميته « مغالطة التسلسل الكامل » — أى ان الفكرة الخاطئة بأن بامكاننا تصور كافة الامكانيات اذا كان هناك شيء ما ممكن ، اذن فليس بوسعنا فى الحقيقة ان نعرف ما يمكن ان يكون ، وذلك ببساطة لأننا لا يمكننا ان نتخيل كل شيء فحيث نصنع الامكانيات بأنفسنا — كما هى الحال فى عالم السياسة — فان تحديد الخيال البشرى ينعكس فى تحديد الامكانيات الفعلية ذاتها . ولكن العالم المادى ليس من صنعنا ، وبالتالى فان السلسلة الكاملة لامكاناته تتجاوز خيالنا .

٤ :

ما هي نتائج هذه الخصوصيات لتفكيرنا فيما يتعلق بالطريقة التي نستطيع بها ان نفكر ، أو الطريقة التي نفكر بها بالفعل ، أو ربما الطريقة التي يجب أن نفكر بها في مشاكلنا اليوم ؟ حتى في هذا الجزء الأخير من القرن العشرين ، عندما بدأ قسم كبير من الجنس البشري يكتسب وعيا تاريخيا ، فاننا مازلنا نعاني من المشكلة القديمة الخاصة بكيفية التلاؤم مع التغيير . ان نفس المشكلة القديمة ـ الخاصة بكيفية تسمية ما نقصر عن فهمه تماما ، وكيف نصف حدود معرفتنا ، في حين ان هذه الحدود نفسها تجعلنا عاجزين عن اداء هذه المهمة ـ هذه المشكلة مازالت تربكنا وتحيرنا .

ان قسما كبيرا من الجنس البشري ـ كما رأينا ـ قد اخذ ينتقل بالحجة والفكر من عالم السياسة والاجتماع الى الناحية الفنية (التكنيكية) وأخذ يرسم قياساته وتشبيهاته في هذا الاتجاه. ولما كان هذا القسم الكبير من البشرية قد واجه ـ منذ زمن سحيق ـ مشاكل الانسان في المجتمع ، التي لا سبيل الى حلها على الاطلاق ، فانه قد افترض أن الأنواع الأخرى من المشاكل قد تكون بنفس الصورة . ان أنبياء الأديان العظيمة الحكماء قد عبروا بطرق مختلفة عن انه لا حل لوضع الإنسان على هذه الأرض . في مجتمعنا الغربي نجد ان الحكاية الرمزية لمشكلة الانسان الشخصية والاجتماعية هي « سقوط الإنسان » و « الخطيئة الأصلية » هي طريقة اخرى للقول بأن الكمال يجب أن ينشد فيعالم آخر ، وربما كان ذلك بمساعدة مخلص او منقذ . لقد تعلمنا أنه لا يوجد في المجتمع البشري سوى مشاكل لا حل لها تقريبا ، ولا حلول بصورة نهائية . فمشكلة السياسة هي فيجوهرها ـ اذن ـ مشكلة الملاءمة بين الانسان وبين مشاكله .

ولكن مشكلتنا في الولايات المتحدة ـ وهي بصفة عامة المشكلة الرئيسية في التكنولوجيا ـ هي كيفية التلاؤم مع الحلول . ان آمالنا الموضوعة في غير موضعها ، واحباطاتنا ، والكثير من غضبنا

وسخطنا مع بعضنا البعض ومع الأمم الاخرى ، يرجع الى عدم استعدادنا للايمان بالمشكلة « التى لا تحل » ، وهو عدم استعداد راسخ فى ايمان العالم الجديد بالحلول . فلا مناص اذن من مغالاتنا فى تقدير دور الغاية فى التغيير البشرى . نحن نغالى فى تقويم قوة الثروة وقوة القوة .

وثمة طريقة واحدة نفسر بها تاريخيا كيف انسقنا لاتخاذ هذه الطريقة المغامرة والخطيرة فى التفكير ، هى اننا نحن الامريكيين كنا نميل الى اتخاذ المشكلة التكنولوجية ــ المشكلة القابلة للحل ــ كنموذج اصلى لمشاكل امتنا ، ثم لمشاكل الجنس البشرى بأسره ايضا . ومن بين ابتكارات التجربة الامريكية ليس هناك ما يلفت النظر أكثر من ابتكاراتنا فى التكنولوجيا ، فى مستوى المعيشة ، وفى وسائل حياتنا اليومية . وكما سبق ان اقترحت ، فان من بين السمات الواضحة لمشكلة التكنولوجيا هى أنها قد تكون فى الحقيقة قابلة للحل ــ هل تنشد طريقة لتفتيت الذرة واحداث سلسلة من ردود الفعل المحكمة ؟ لقد وجدتها . ان هذه المشكلة قد حلت ! .. وهكذا كان الحال مع كثير من المشاكل الكبيرة والصغيرة فى عالمنا التكنولوجى بأسره . هل تريد مادة لاصقة لا تتطلب بللا لاغلاق السنة الظروف ؟ هل تريد سطح طريق عام لا يتصدع تحت تغيرات معينة فى درجة الحرارة ؟ هل تريد قلما يكتب تحت الماء ؟ هل تريد آلة تصوير تنتج الصورة فى عشرين ثانية ؟ أو لعلك تريد الصورة بكامل الوانها ؟ .. ويمكننا ان نوفر لك كل هذه الأشياء . فهذه مشاكل محددة لها حلول محددة .

ولما كنا قد اخذنا هذا النوع من المشاكل كنموذج أصلى لنا ، فقد افترضنا ــ بأسرع مما ينبغى ــ ان كافة المشاكل الأخرى قد تكون مثلها . وفى حين ان بقية الجنس البشرى قد انتقل بالحجة والتفكير من عالم السياسة والاجتماع الى العالم التكنولوجى (ولذلك فانه قد وصل قبل الأوان فى معظم الأحيان الى نتائج مخطئة ومثبطة) اذا بنا نحن نرسم تشبيهاتنا فى الاتجاه الآخر . وقد اغرينا نحن للوصول ــ قبل الأوان ــ الى نتائجنا المخطئة ــ وان كانت مشجعة ــ عن طريق التنقل بالمنطق من عالم

التكنولوجيا الى عالم السياسة والاجتماع . وقد يكون في استطاعتنا أن نوفر نوعا جديدا من الحبوب ، وهكذا نقضي على المجاعة في مكان معين - ولكن قد لا يكون في استطاعتنا ان نرفع الظلم في أي مكان ، حتى في بلادنا ومن باب أولى في أماكن بعيدة .

ومع ذلك فمن المحتمل ان نتعلم كيف نتلاءم مع مشاكلنا ، دون تكبر أو غطرسة ، أو تمثيل دور الاله الذى بيده وحده كافة الحلول . وفي نفس الوقت ، يجب ان نتعلم كيف نقبل قانون « جون آدامز » (ان الحكمة السياسية لا تتقدم تقدما محسوسا وان مشاكل المجتمع ـ مشاكل العدالة والحكومة ـ ليست الآن أكثر قابلية للحل منها في اى وقت مضي . وعلى ذلك فان حكمة الماضي الاجتماعى لا تتقادم أبدا) ، في الوقت الذى نقبل فيه أيضا قانون آرثر كلارك (ان كافة المشاكل التكنولوجية قابلة في جوهرها للحل ، وان « اى شيء ممكن نظريا ، سوف ينجز عمليا ، بغض النظر عن الصعوبات الفنية (التكنيكية) اذا كان هذا الشيء مرغوبا بدرجة كافية » . وعلى ذلك ، فان الماضى التكنولوجى يتقادم دائما) .

يجب ان نكون على استعداد للاعتقاد بأن السياسة هى فن الممكن ، وان التكنولوجيا هى فن المستحيل . اذن فيجب ان نعتنق الفنين معا ونرعاهما . وعلى ذلك ، فان انجازاتنا الامريكية في كل من السياسة والتكنولوجيا تطرح أمامنا اختيارا ، وتختبرنا في توتر اختبارا يختلف عما طرح امام أى شعب قبلنا في التاريخ . فلم يحدث قط من قبل ان تعرض شعب لكل هذا الاغراء (مع وجود مثل هذا المبرر القوى) لأن يعتقد بأن اى شيء ممكن تكنولوجيا . وكانت النتيجة انه ربما لم يجد شعب قبلنا مثل هذه الصعوبة في مواصلة البحث ـ دون خجل أو ارتباك ـ عن الحدود الحكيمة لما هو ممكن سياسيا . في هذا الوطن الانتقالى الأمريكى . . في هذا العالم الجديد المملوء بالأمل والرعب ، لدينا فرصة نادرة للاستفادة من اكتشاف الانسان الحديث بأن له تاريخا .

٣ ــ من الارض الى الآلة

عندما غادر آباؤنا اللاحون المهاجرون ظهر السفينة « ماى فلاور » فى ٢١ نوفمبر سنة ١٦٢٠ ووطأوا ارض وطنهم الجديد ، » جثوا على الارض ، وباركوا اله السماء الذى جاء بهم عبر المحيط الصاخب المترامى ، وانقذهم من كل المخاطر والوان الشقاء التى تكتنفه ، وجعلهم مرة اخرى يضعون اقدامهم على الارض الثابتة ــ ذلك العنصر الاصلى الحقيقى « . كانوا فى طريقهم الى اكتشاف عالم جديد واختراعه . لقد اسلموا انفسهم الى بلد لم يكن ليتخيله زملاؤهم الأوروبيون قبل ذلك بقرن من الزمان او اقل . وكان يمكن أن يطلق على هذا البلد « الارض المستحيلة » ،لأنه لم يكن للقارة الامريكية مكان فى تراث الاوروبيين . فى أواخر القرون الوسطى كان اعظم الثقاة يصفون شكل العالم المعروف ومداه بانه كوكب يتألف من ثلاثة اجزاء ، هى اوروبا وآسيا وافريقيا . وكانت خريطة العالم وقتئذ يتوسطها بيت المقدس ، ويمتلىء ما بقى من الخريطة باراض ...... اما حقيقية او خيالية . ولم يكن هناك مكان لقارة رابعة فى خريطتهم أو تفكيرهم أو تاريخهم أو أدب أسفارهم .

بهبوط هؤلاء الآباء المهاجرين الى الارض اخذ الاوروبيون يكتشفون ــ فى عناء وعلى كره منهم ــ ان هذه الشواطىء ليست جزءا من آسيا ،وانهم قد لا يقابلون « الخان العظيم » ، ولا يلتقون بأمبراطور سيبانجو (وهو الاسم الذى اطلقه ماركوبولو على اليابان) فى الجزيرة التالية . فان كثيرا مما تعلمه المستكشفون ــ فى القرن السابق على وصول المهاجرين ــ لم يكن ايجابيا . لقد عرف المستوطنون الشجعان انهم قادمون الى عالم جديد ، غير

مأهول فى معظمه ، ولم يتعرض للسلب والنهب . ولكنهم لم يكونوا يعرفون بعد كم كان جديدا عالمهم الجديد . وبالرغم من الجهود المضنية التواقة الى الماضى ــ التى بذلتها عدة أجيال من المستعمرين وسكان « نيو انجلند » ــ لم يكن مقدرا لامريكا ان تصبح اوروبا جديدة .

١ :

وكان مقدرا للتجربة الامريكية ان تكون مختلفة . فهنا سوف يكتشف المهاجرون امكانات جديدة فى الارض وهى « العنصر الحقيقى الأصلى » للانسان . لقد سبق ان كون الانسان فى أوروبا أفكاره عن نفسه .. عما يستطيع ومالا يستطيع ان يفعله ، من خلال تجربته فى اراض مألوفة ، حيث كان الأحفاد وأحفاد الاحفاد يعيشون من جديد عادة تجربتهم التقليدية ، على منظر طبيعى ودود أما أمريكا ، فانها كانت تقدم منظرا طبيعيا غريبا وغير ودود فى كثير من الاحيان .

كانت هناك هجرات من قبل : فان اسلاف الهنود الامريكيين عبروا جسر بيرنغ البرى من آسيا ، ودخل النورمانديون بريطانيا وصقلية والشرق الاوسط ، واتجه الصليبيون واتباعهم نحو الارض المقدسة . ودخل المغول والاتراك اوروبا الشرقية . ولكن معظم هذه الهجرات كانت اما حملات صليبية أو غزوات . كما لمست تيارات الجنود والرحل والبدو والتجار كثيرا من الاراضي دون أن تحتلها . اما هجرة الاطلنطى العظيمة ــ فى مدى قرن ونصف القرن فقط ، بين عامى ١٨٢٠ و ١٩٧٠ ــ فقد جلبت حوالى ستة وثلاثين مليونا من الاوروبيين الى الولايات المتحدة .

جاء المستوطنون الامريكيون ليأخذوا الارض ويشكلوها وما كان السكان الاوائل لهذه الارض ــ وهم « الهنود » الذين التقى بهم المهاجرون الاوروبيون ــ ليعاملوا على طريقة الرومان ، أى كشعب يدمج فى الامبراطورية . بل انهم بدلا من ذلك ــ عوملوا على

انهم جزء من الطبيعة . لقد ازيل معظمهم كالغابات . او دفعوا الى الخلف .. كالبرارى .

ولغرابة ما فى التاريخ ، ظل جزء كبير من المناطق المعتدلة فى الارض ـ مثل قلب امريكا الشماليه ـ غير آهل بالسكان . فعندما جاء الاوروبيون ـ فى اواخر القرن الخامس عشر والقرن السادس عشر ـ كان هناك حوالى مليونين او ثلاثة من الهنود ، مبعثرين فى مساحة تبلغ ضعف مساحة اوروبا ، التى كان عدد سكانها وقتئذ يقدر بحوالى مائة مليون . لقد انتشر الامريكيون السابقون على سكان « كولمبس » فى اماكن متباعدة متفرقة عبر امريكا الشمالية . على صورة لم يتركوا معها طابعا قويا على الارض . فكانت هناك قرى هندية على منحدرات صخرية شاهقة فى الجنوب الغربى ، وخيام مخروطية الشكل من الجلد ، وقرى متناثرة . وهكذا فان القارة التى رآها المستوطنون الانجليز والفرنسيون كانت ارضا لم تلمسها يد البشر . وكان المستكشف يمشى أميالا خلال البرارى الامريكية ، أو يستقل قاربا فى أحد الانهار العريضة ، ويطفو به اياما عدة ، دون ان يرى أثرا للجنس البشرى .

وكما كان الهنود يفتقرون الى « التكنولوجيا » ليطردوا بها المستوطنين الاوروبيين ، فانهم كذلك كانوا يفتقرون الى « التكنولوجيا » ليغيروا بها وجه الارض .. كانت الارض بكرا ، لأن الناس ـ فى غير هذا المكان من العالم ، وخاصة الاوروبيين ـ ظلوا يجهلون هذا الجزء زمنا طويلا . ان العبارة الشائعة « اكتشاف امريكا » تحكى مؤلفات عن كيفية تفكير الاوروبيين وقتذاك .. عن طابعهم الريفى الذى لا يعرف الخجل ، وعن عزلتهم واحتباسهم انفسهم فى خيال العالم القديم .

ولم يتأثر لقاء الأوربيين بالارض بما لم يحدث لامريكا فحسب بل ايضا بما كان يحدث فى اوربا . فقد كان عصر النهضة فى اوروبا هو عصر الاكتشافات التى لم يكن اكتشاف أمريكا سوى واحد منها . كانت اسس العلم الحديث توضح ، بينما كان المهاجرون يهبطون فى « بلايموث » . وكان كتاب فرانسيس بيكون « العضو

الجديد Novum Organum يحث الناس على التحول من نفوذ أرسطو الى دليل حواسهم . اما المستوطنون الذين جاءوا خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر ، فلم يكونوا يمتلكون الاسلحة النارية والدراية بالملاحة خلال آلاف الاميال في البحر فقط بل كانوا يعيشون في عصر بدأ يرسم مسار الدم خلال الجسم البشري واخذ يتابع الكواكب في مداراتها حول الشمس .

عندما جاء المستوطنون الاوروبيون الى امريكا الشمالية ، كان هنا لنوع جديد من اللقاء .. وهو لقاء ما كان يمكن أن يحدث من قبل ، ولن يحدث مرة اخرى . كانوا قوما « متحضرين » ـ يملكون ثقافات اوروبا الغربية المتراكمة ، وتراث جزء كبير من المعرفة العربية ، وتقاليد وآداب العالم الكلاسيكي والمؤسسات ، وعلوم اللاهوت ، وفلسفات اليهودية والمسيحية ، وتجربة عبور محيط تكتنفه المخاطر . كانوا ينشدون الهمم ومصائرهم في ارض خام وبلاد همجية وحشية .. كانت فرصة نادرة !

أما البيوريتانيون الذين اشتهروا بمهارتهم في اكتشاف هدف الله في كل شيء ، فقد فسروا اكتشاف امريكا بان العناية الالهية قد احتفظت بهذا العالم الجديد سرا لمدة قرون طويلة . اعتقدوا أن « نيوانجلند » ظلت مدخرة حتى يستطيع ـ في النهاية ـ أن يملأها البروتستانت الانجليز بدينهم المطهر . وهكذا ، فان الهنود كانوا حراسا من الله ، اختيروا دون علم منهم ليحتفظوا بالارض حتى وصل البيوريتانيون .

ولم ينته اكتشاف امريكا بوصول المهاجرين . فقد واصل المستوطنون من اوروبا ومن غيرها من الاماكن رحلاتهم الاستكشافية المشتركة في داخل القارة وحولها وعبرها . ويمكن ايجاز التاريخ الامريكي ـ لمدة قرن كامل على الاقل بعد اعلان الاستقلال ـ بانه استمرار لاكتشاف أمريكا .. وهو اكتشاف ذو تكلفة باهظة ، وذو عائد عظيم ـ اكتشاف لما تحويه الارض ، وما يمكن أن يصنعه الناس من الارض ، وكيف أن مواردها يمكن أن تصنع حياة الناس

من جديد . وقد ترك هـذا اللقاء الامريكي الغريب بالارض الخام علامات خلقية على الحضارة الامريكية ، في اواخر القرن العشرين على الاقل .

كان الايمان بالمستقبل ـ المثقل بالغموض ـ بالنسبة لجزء كبير من التاريخ الامريكي ايمانا بالارض ـ وكان الكشف التدريجي لأعاجيب القارة ـ لما يمكن أن يزدرع ولما يمكن ان يوجد تحتها ولكيفية امكان التحرك فيها شمالا وجنوبا وعبرها ـ يدعم الايمان بأن هذه البلاد كانت مقرا لكنز من الاشياء غير المتوقعة . . وثمـة مفاجأة مبكرة وقعت في الشمال الغربي القديم ، وهي ان المناطق التي لم تكن قد رسمت على خريطة بعد ـ حول البحيرات العظيمة بين نهري اوهايو والمسيسبي ـ سلمت الى الولايات المتحدة بمقتضى معاهدة باريس ، عام ١٧٨٣ ـ ولم تكن هذه المنطقة (كما تخيل الكثيرون) أرض مستنقعات أو صحارى ، بل كانت منطقة سهول حسنة الري ووديان خصبة .

وتضاعفت المفاجآت . . فمن كان بوسعه أن يتكهن بأن الجداول الواقعة اسفل تلال كليفورنيا الشمالية ، سيثبت ـ في عام ١٨٤٨ ـ انها مناجم ذهب ؟ او انه سوف يكتشف في جبال نيفادا الغربية ـ بعد احد عشر عاما ـ تراكمات طبيعية غنية من الفضة تتجاوز احلام الجشع ؟ او أن « حماقة » ادوين دريك ـ وهو قاطع تذاكر سابق في خط حديدي ، هام على وجهه ـ قدر لها أن تفضي الى كنز من المعدن الاسود المتدفق البترول تحت تربة بنسيلفانيا الغربية ؟ من كان يمكنه ان يتخيل أين يوجد النحاس والفحم والحديد . . أو اليورانيوم ؟ . . من كان يستطيع أن يتنبأ اين يستطيع الفلاح ان يزرع البنجر وفول الصويا والبرتقال والفول السوداني ، وأين يستطيع مربي الحيوانات أن يربي الماشية من اجل لحم البقر ، والاغنام من أجل الصوف . . بل حتى تماسيح امريكا من أجل الحقائب ؟ مثل هذه الصفات المدهشة للارض لم تكن الحقائق المشكلة للقرون الامريكية الأولى فحسب ، بل انها سيطرت على حيـاة ملايين الامريكيين ، واتاحت أمامهم الفرص وأبرزتها .

عندما كشف الغطاء عن تلك الكنوز غير المتوقعة ـ التي تملكها امة القارة ـ وعندما كشف كل جيل عن مورد جديد مثير للدهشة، كان من الطبيعي ان الامريكيين نسجوا اسطورة ان هذه القارة هي « الارض الذهبية » . هذه الاسطورة ـ التي ربما كانت مبالغة . ولكنها ليست اكذوبة على الاطلاق ـ جلبت المزيد والمزيد من المستوطنين . واعتقد الامريكيون ـ بطبيعة الحال ـ ان الاله الذي وفر مثل هذه الثروة لشعب عالمه الجديد ، لابد ان يكون قد اختارهم لرسالة خاصة . كل هذه الموارد التي كانت مخبوءة في وقت من الاوقات ساعدت بطريقة ما على اقناع الامريكيين بأن لهم مصيرا « واضحا » .. كان مصيرهم واضحا جليا ، بل « ذا وضوح واقعي ذاتي » كالحقوق المعدودة في اعلان الاستقلال . وكان على الامريكيين اذن واجب آخر ، هو ان يكتشفوا للبشرية جمعاء كافة البشائر التي لا تزال مخبوءة في العالم الجديد .

ان جزءا كبيرا من الطابع الخاص للحياة الامريكية والحضارة الامريكية ـ على الاقل حتى العيد المئوي عام ١٨٧٦ ـ قد نشأ من اللقاء المستمر بين الاوروبيين المعاصرين لعصر ما بعد النهضة مع امريكا التي كانت في العصر السابق لاكتشاف الحديد . وهنا كان أول بشير مفاجيء للعالم الجديدبشير قدر له ان يتحقق بطرق كثيرة . فقدر للامريكيين ان يجدوا طرقا جديدة لا ستغلال الارض، وقدر لهم ان يبنوا انواعا جديدة من المدن ـ المدن في البراري ـ وانواعا جديدة من المدارس والكليات .. ان يبنوا عالما ديمقراطيا جديدا من التعليم . قدر لها ان يستجلبوا لها من كافة أنحاء العالم اناسا ذوي رؤية . مهاجرة ، رأوا وخلقوا امكانيات جديدة في السياسة وفي المجتمع وفي الفن وفي الادب وفي العلم وفي التكنولوجيا . ان البشير ـ بان الحضارة يمكنها ان تغير وجه الارض الخام ـ يفسر لماذا كان عدد كبير من الامريكيين كثير الحركة ولماذا كانوا مقبلين في حيوية بالغة على بناء القنوات ، ولماذا بادروا مبكرين ببناء السكك الحديدية ، وصنع النوع الخاص بهم من السفن البخارية والقاطرات ـ انه يفسر الفرص الخاصة التي اتيحت للامريكيين ليحسنوا قدرهم ونصيبهم ويرتفعوا في العالم . والتنوع الغني في الارض ايضا ، ساعد على تفسير سبب

نشوب الحرب الاهلية . فمن هذا التنوع قدر للمشاكل والمآسي واحساس جديد بالقومية ان تظهر . فالحرب الاهلية التي لونت بالدم اول قرن من الحياة القومية كانت صراعا بين اراء متعارضة في الحرية وطرق متناقضة في الحياة ومناطق متناقضة .

٢ :

وبقيت – في القرن الثاني من الحياة القومية – الارض وظلت العناصر الطبيعية لامة القارة توحي بالعجائب . ولكن الصفات الخاصة للحضارة الامريكية لم تعد نتيجة لقاء بين رجال ونساء رفيعي الثقافة وقارة « خام » . اذ اصبح هناك لقاء آخر لا يقل اثارة أو تميزا عن الاول الا وهو اللقاء بين الانسان والآلة . وذلك اللقاء شأنه شأن اللقاء الاول كان جديرا بلفت الانتباه لما اتسم به من مفارقة تاريخية ونسبة قياسية وسرعة . فان الامة الجديدة ضغطت التاريخ الذي مرت به اوروبا – خلال الفي عام – في قرن أو قرنين من الزمان . وهنا ظهرت بعض بقايا المراحل المبكرة للحضارة الاوروبية ، مثل العبودية في الجنوب ، والمحاكمة عن طريق القتال الشخصي في الغرب . ومع ذلك فان امريكا استطاعت ان تتخطى بعض هذه المراحل وهي في طريقها لأن تصبح امة عصرية . ولم يتعين على امريكا وهي تتقدم بسرعة لم يسبق لها مثيل ، أن تمر بمرحلة الاقطاع ، وما يتسم به من تعدد في مظاهر الولاء وخلق للطبقات الارستقراطية فكان التاريخ هنا – اذا قورن بتاريخ غرب اوروبا – مثل عرض « فيلم » سريع الحركة ، ترتفع فيه سرعة العرض الى خمسة امثال المعدل الطبيعي . وفي النسخة الامريكية – لهذا الفيلم – حذفت أحداث كثيرة كانت موجودة في القصة الاصلية الاوروبية .

فالولايات المتحدة لم تمر بها قط عصور وسطى . والمدن التجارية الكبيرة في الدولة – مثل بوسطون وفيلادلفيا وشيكاغو وبيتسبرج – لم يكن لها « شركات مدن » أو نقابات حرفية قوية احتكارية ، من ذلك النوع الذي نما وترعرع في لندن على مدى قرون . وفي القرن التاسع عشر ، كانت لهذه الدولة – على النقيض من انجلترا وفرنسا او المانيا – مزايا صناعية غير متوقعة شبيهة

بمزايا الدول التى دمرتها القنابل بعد الحرب العالمية الثانية . اذ استطاع الامريكيون أن يبنوا صرحا صناعيا من لا شيء. فمثلا ادهشت الولايات المتحدة العالم بسرعة واسلوب بناء السكك الحديدية . فكانت السكك الحديدية تمتد بأسرع ، وبتعدد أكبر فى كثير من الاحيان مما فى أى مكان آخر . فاذا الولايات المتحدة الشابة قد فاقت العالم الى درجة كبيرة فى طول مسافة السكك الحديدية ففي بريطانيا العظمى كانت السكك الحديدية تنمو فى منافسة شاقة مع الطرق القديمة . كان الزوار الاجانب والبريطانيون بوجه خاص يعجبون كيف ان السكك الحديدية الامريكية تمتد من « لا مكان معين بالذات الى لا مكان مطلقا » ولم يكن انجاز ذلك على الرغم من « بدائية » الارض ، بل كان بسبب هذه البدائية . وفى امريكا شبه المقفرة ، لم يكن على « تكنولوجيا » اليوم ان تنافس « تكنولوجيا » الامس .

لم يكن قد اكتشف من الولايات المتحدة سوى نصفها ، حين دخلت عصر الآلة . وقبل ان تكف عن لقائها مع الارض ، بدأت الصفات الخاصة بالآلة تدمغ الحضارة الامريكية بطابعها الدائم . لم تعد نغمة الحياة الامريكية وايقاعها تلك اللازمة المتواضعة القائلة بأن « الله وحده يمكنه أ ن يصنع الشجرة » ــ بل أصبحت « ان الانسان وحده يستطيع ان يصنع الآلة » . كان الامريكيون يعيشون فى عالم يصنعه الانسان عاما بعد عام .

وبينما كانت الآلة تشعر الانسان بأنه سيد على عالمه . فانها ايضا غيرت شعور العالم الذى سيطر عليه الانسان كانت الآلة أداة تجانس فهى تميل لأن تجعل كل شيء ــ المنتجات والازمنة والاماكن والناس ــ أكثر تشابها . فى عصر ما قبل الآلة ، كانت حياة الانسان يحكمها الطقس والمنظر الطبيعى والمسافات بين الاماكن . وكان طعام الانسان محدودا بفصول السنة . وفى الشتاء كان منزله باردا ، وفى الصيف كان حارا . وكان جزء كبير من مشترياته من صنع جيرانه فى المنطقة المجاورة له ، وقدرته على مشاهدة الاحداث يحدها المجال الضيق لبصره . وكانت زياراته الى الاماكن البعيدة فى الدولة تتطلب أسابيع او حتى شهورا ، وكان السفر امرا غامضا او محفوفا بالمخاطر .

فغيرت الآلة كل هـذا . انتشرت التدفئة المركزية انتشـارا واسعا ـ فى منتصف القرن العشرين ـ الى حد ان معظم الامريكيين من الطبقة المتوسطة لم يفكروا فيها قط على انهـا شيء خاص بالامريكيين . ولم يدركوا ان التدفئة المركزية كانت طريقة للسيطرة على الطقس ولتحويل المناخ داخل المنزل من الشتاء الى الصيف وفى اواخر القرن العشرين ، اكمل تكييف الهواء سـيادة الانسان على المناخ داخل المنازل .

وقبل نهاية القرن التاسع عشر ، بدأ الطعام الامريكى يتشكل بواسـطة الآلة . فعربة التبريد فى السـكك الحديدية اخـذت تجلب اللحم الطازج واللبن الى المدن . وقد ادى تعليب الاطعمـة والتبريد فى المنازل ـ واخيرا التجميد السريع والتجفيف ـ الى جعل اطعمة الشتاء والصيف اكثر تشابها . وفى منتصف القرن العشرين ، اخذ الامريكيون يتناولون طعام العشاء امام التليفزيون وهو طعام غير مقصور على منطقته ، ومتجانس شأنه شأن برامج الشبكة التليفزيونية التى يشاهدونها فى غرف المعيشة ، وفقدت المسافات القارية معناها بصورة جديدة ، اذ جلبت السيارة المدينة الى المزارع فى الريف . وجعلت الطائرة رجال الاعمال فى شيكاغو يلقون فى سهولة مدينة نيويورك أو سان فرانسيسكو واصبح آلاف الامريكيين الآن يزورون باريس أو طوكيو خلال اجازاتهم التى تمتد أسبوعين .

وبينما كانت سيادة الآلة هذه على العالم تيسر حياة الامريكيين وتثريها بطرق كثيرة ، كان هناك دائما ثمن يدفع . كانت عربات الجولف ـ التى تحمل الامريكيين من محبى الجلوس حول اراضي الجولف الممهدة ـ تحرمهم من متعة السير على اقدامهم وتجعل من الجولف لعبة سريعة ذاتية الحركة . وكانت سـيارة الثلج ، التى تحمل حشودا من الامريكيين ـ الذين لا يحسـنون التزحلق على الجليد ـ عبر الثلج البكر تلوث هواء الجبل وتبـدد السكون المخيم عليه (ولعل الجاذبية الخاصة للبيسبول وكرة السلة وكرة القدم هى السبب فى عدم القدرة على ميكنتها) .. حتى المتنزهات الوطنية لم تستثن من هـذا الزحف . فهذه المؤسسة (النظـام

الاجتماعى) الامريكية المميزة أصبحت محبطة بنجاحها . فعلى الرغم من الجهود التى بذلتها ادارة المتزهات الوطنية ، تحول بعض من اجمل ساحات المخيمات فى الدولة الى أحياء ريفية قذرة عندما جلبت السيارات والدراجات البخارية الملايين الى « البرارى » .

ان أعاجيب الديموقراطية الامريكية التى كانت تهدف الى جلب كل شىء الى كل فرد ـ تسببت فى تعقيدات وارتباكات جديدة . فأصبح لدى كل فرد تقريبا مزيد من الاشياء ، وأصبح كل فرد تقريبا يتناول طعاما أفضل ، ويحظى بفرصة متاحة لمزيد من التعليم وفرصة لحياة أفضل ـ ولكن هل قل الاستمتاع بهذه الفوائد ؟ أو قل تقديرها ؟

وقد تغيرت ـ على صورة ما ـ علاقات الامريكيين بالمسئولين المنتخبين وبحكوماتهم . فعندما كان الرئيس « توماس جيفرسون » يتلقى خطابا ، كان يوضع له على مكتبه . وكان من المحتمل جدا أن يفضه بنفسه ، فان كان يستحق اهتمامه كان يكتب الرد . أما فى منتصف القرن العشرين ، فاخذت الخطابات الموجهة الى رئيس الولايات المتحدة « تعالج بسلسلة من العمليات المتعاقبة » فى غرفة البريد بالبيت الأبيض . اذ تفض بفتاحة خطابات كهربائية ، ثم توجه الى واحد من آلاف العاملين فى « البيت الأبيض » ، أما الخطابات القليلة التى تستحوذ على اهتمام الرئيس ، فقد يقوم باملاء الردود عليها أحد مساعدى الرئيس . وقد يبدو أن الخطاب موقع من الرئيس ، ولكن آلة التوقيع تضيف توقيع الرئيس ـ أو بالأحرى صورة طبق الاصل منه .. ليس فقط على هذا الخطاب ، بل ايضا على معظم الوثائق التى يبدو أنه وقعها .

اختلت الاشياء المصطنعة والحقيقية تتداخل . ولم يكن هذا الدمج بين المصطنع والحقيقى يحدث فى البيت الأبيض وحده ، فاذا الامريكيون الذين يشاهدون التليفزيون تنتابهم الحيرة ـ فى معظم الاحيان ـ ازاء زمن ومكان وقوع الأحداث المرئية ، فيحارون فيما اذا كان ما يرون « بالألوان الحية » يحدث فى وقت مشاهدته بالفعل

وفيما اذا كان زائفا أو حقيقيا ، وما اذا كان حقيقة واقعة أم خيالا، وما اذا كان تاريخا أم وهما .

أخذت الآلة تجلب الى العالم ابتكارات لانهائية . فلم يكد يوجد نشاط من أنشطة الحياة اليومية لا تستطيع أداة ما ان تجعله أكثر اثارة للاهتمام ، أو على الاقل أكثر تعقيدا . ان مديه الحفر وفرشاة الأسنان اداتان بسيطتان طال استعمالهما ، ولكن قدرة الامريكيين على الاختراع وحبهم للابتكار قد ينتجان فى الوقت المناسب المدية وفرشاة الأسنان الكهربائيتين . **فماذا يأتى بعد ذلك ؟**

فى أوائل القرن العشرين ، كان أحد الظرفاء الامريكيين من ذوى الاتجاهات الفلسفية — وهو روب جولدبرج — يرفه عن الامريكيين برسوم كاريكاتورية تعبر عن حبهم للالة . كما أعطاهم شعارا ساخرا للعصور الحديثة قائلا — « انجز ذلك العمل بالطريقة الصعبة ! » .. وعندما بدأ يرسم الشعار فى رسوم كاريكاتورية تبين أجهزة مستحيلة ، أصبح الامريكيون مفتونين على صورة جديدة بطرق معقدة لتبسيط الحياة اليومية . لماذا تسير على قدميك اذا كنت تستطيع الركوب ؟ لماذا تستخدم قلما خشبيا اذا كنت تستطيع استخدام قلم معدنى ذى رصاص قابل للسحب — ويحتوى على رصاصات كثيرة ملونة لست فى حاجة اليها ؟ ولماذا لا تستخدم قلما جافا يستطيع أن يكتب تحت الماء ؟ ولماذا نكتب بقلم رصاص أو قلم حبر اذا كان فى امكاننا استخدام الآلة الكاتبة ؟ ولماذا نستخدم آلة كاتبة بسيطة تستعمل باليد عندما يكون بوسعنا استخدام آلة كهربائية اكثر تعقيدا بكثير ؟ ولماذا تكتب ما تريد بنفسك على الاطلاق ، اذا كان فى امكانك — أولا — ان تملى ذلك فى آلة تسجل صوتك على شريط يمكن ان يوضع فى آلة أخرى ، حيث يعاد مرة أخرى لشخص ينسخ الكلمات على آلة كاتبة كهربائية ؟ .. وهكذا سار الحال .

وكما ولد حب الامريكيين للأرض مغامرات رائدة واثارة لا تنتهى فى غزو القارة ، كذلك فان حبهم الأخير للالة قد ولد مغامرات رائدة من نوع جديد . لقد بدا أن هناك نهاية لاستكشاف

القارة ، ونهاية لعبور الصحارى التى لم ترسم لها خرائط ، ولتسلق الجبال المرتفعة فى غير تدرج . ولكن لم تكن هناك حدود لعالم من صنع الآلة . كان عالم الآلة من صنع الانسان ، ولم يستطع احد أن يتنبأ أين يمكن أن تكون الحدود أو ما الذى يحتمل أن يصير ممكنا بوساطة ما يقوم به من « تكنولوجيا » . ولكى تظل الآلة فى عملها ، انتقل الامريكيون من قوة الحصان ، الى قوة البخار ، الى الطاقة الكهوبائية ، الى طاقة الاحتراق الداخلى ، الى الطاقة النووية . الى مالايمكن ان يتكهن به أحد .

ان تحدى الآلة ذو نهاية مفتوحة مثل الروح البشرية . ان الامريكيين فى اواخر القرن العشرين ـ تحديا منهم لبعض المتحدثين عن الآلام والكوارث ـ سنحت لهم فرص لم تتح لهم من قبل ، للقيام بما لم يسبق له مثيل . لم تكن مشكلتهم فى الافتقار الى الفرصة من أجل المغامرة ، بل هى فى ضحالة الرضا البشرى والانجاز البشرى . كان التحدى الامريكى هو فى كيفية المحافظة على احساس البحث الذى أتى بالأمة الى الوجود . كيف يمكن اكتشاف المبتكرات اللا نهائية للالة ؟ . كيف يمكن عمل قلب من « البلاستك » ؟ كيف يمكن ابتكار جهاز تليفزيون ذى ثلاثة ابعاد ؟ كيف يمكن استكشاف القمر والكواكب ؟ كيف يمكن القيام بالاف الاعمال من سحر الآلة مما لم يخطر بعد على خيال احد ، دون أن يصير الانسان خاضعا للالة ، ودون أن يضعف الاحساس بالابتكار ، ودون أن يفقد البحث عن الجديد فتنته وسحره ؟

٤ ــ التكنولوجيا السياسية : الدستور

عندما نعود بنظرنا الى سلسلة الاحداث التى وقعت بين عامى ١٧٧٦ و ١٧٨٩ ، والتى تمخضت عن وجود الولايات المتحدة الامريكية ، فلابد ان يلفت نظرنا اولا ان الزعماء كانوا أقل اهتماما بالايديولوجية ــ أى صياغة فلسفة نظامية ــ منهم بتكنولوجيا السياسة .. كانوا يختبرون مبادىء معروفة بتطبيقها على مشاكلهم المحددة ، وكان اهتمامهم الخاص « بتنظيم الوسائل لاشباع الحاجات والرغبات » ــ وهو تعريف قاموسي للتكنولوجيا . هناك عدد من المفاتيح لروح ثوار امريكا الشماليين .. تلك الروح المفتوحة ، والتجريبية والتكنولوجية .

١ :

تتركز اول واوضح مفاتيحنا فى الوثائق الأساسية الباقية للثورة . وأهم هذه الوثائق بالطبع هى وثيقة اعلان الاستقلال ، التى تحمل تاريخ ٤ يوليو عام ١٧٧٦ . كانت المقدمة ــ وهى أشهر الفقرات وأكثرها ورودا على الألسن ــ هى أقل الفقرات تميزا . وقد وصفت مبادىء المستوطنين ــ فى اول الأمر ــ بأنها « بديهية » ، ثم ان « الاحترام اللائق لآراء الجنس البشرى » (وكذلك مقتضيات الدبلوماسية) كانت تتطلب ملخصا قويا لأسباب العمل المعين الذى أعلنته ، وهو فصل المستعمرات البريطانية الثلاث عشرة . وعندما اتهم جيفرسون بكتابة وثيقة لا تحتوى على فكرة جديدة واحدة ، تذكر غرضه الواضح البسيط العملى وهو : « الا يكتشف مبادىء جديدة أو حججا جديدة لم تخطر على بال احد من قبل ، ليس فقط لقول اشياء لم يقلها أحد من قبل ، بل ليضع أمام الجنس

البشري الادراك السليم للموضوع ، ولنبرر أنفسنا فى الموقف الاستقلالى الذى أرغمنا على اتخاذه » . ان جسم الوثيقة قد طبق هذه المبادىء المعروفة ـ وليس عقيدة طائفة معينة ، بل المعتقدات المقبولة للحياة السياسية البريطانية خلال القرن الماضي ـ بالنسبة لسلوك الملك البريطانى الذى فرض سيادة لا حد لها على بعض المستوطنين الامريكيين . اما قلب الوثيقة ، فلم يكن قائمة من المبادىء بل من المظالم . فهناك حوالى ستة وعشرين بنداً تتهم الملك بسلسلة عريضة من الجرائم المحددة ، وهى تتراوح بين رفض الملك ـ الذى لا مبرر له ـ قبول تشريع مطلوب ، الى التدخل فى شئون المحاكم ، وفرض جيوش عاملة دون موافقة الهيئات التشريعية بالمستعمرات وانزال جنود على سكان معارضين ، وحماية القتلة وسد واعاقة الموانىء البحرية ، وقطع التبادل التجارى .

وهكذا ، فان شهادة ميلاد امتنا كانت تشهد بصورة واضحة ـ وغير متعمدة ـ على اهتمام فطرى بنتائج كل يوم . لم تكن الوثيقة ـ فى المقام الاول ـ اعلانا لمبادىء أو اعلانا لحقوق الانسان ، بل كانت اعلاناً للاستقلال .

كيف وصف المؤسسون هذه الدولة الجديدة ، التى اعلنت استقلالها بهذه الصورة الملحة العاجلة ؟ كانت الروح التجريبية الصريحة واضحة فى الاسم الذى اختاروه . وقد طمست الألفة معنى الألفاظ ، أو بالاحرى اضفت عليها دقة لم تكن لها قط ساعة تسميتها . وكانت هذه المجموعة الجديدة من الكيانات السياسية تشير الى نفسها ـ فى البداية ـ فى مختلف الوثائق الموجهة الى الملك والبرلمان ـ أثناء نضالها من أجل الاستقلال ـ باسم « المستعمرات » ، ثم « المستعمرات المتحدة » واخيراً باسم « المستعمرات الامريكية المتحدة » أو « مستعمرات امريكا الشمالية المتحدة » . وكانت الرتب فى الجيش ـ الذى جمع حديثا ـ تصدر فعلا بهاتين الصيغتين الأخريين . وعندما اجتمعت لأول مرة هيئة المستوطنين الثورية فى فيلادلفيا (من ٥ سبتمبر الى ٢٦ اكتوبر ١٧٧٤) ، اتخذت لنفسها لقبا رسميا هو « المؤتمر » وهو لقب لايوجد ما هو أوضح منه . وكانت كلمة « قارى » حينذاك تضاف الى

الاسم ، فيصبح « المؤتمر القارى » فيتم التمييز بينه وبين المؤتمرات الأقليمية الأخرى المتعددة . ولا شك فى أن ما يدعى « بالمؤتمر القارى » ــ الذى لا يمثل سوى المستعمرات الساحلية على الأطلنطى ــ لم يكن مطلقا على نطاق شامل للقارة .

بعد قرار الاستقلال ، كانت الدولة الجديدة فى حاجة الى اسم ــ ولكن لم يكن من الواضح مطلقا ماذا يجب ان تسمى الدولة نفسها .. كان عنوان نص اعلان الاستقلال يصف الهيئة المحتلة باسم « الولايات المتحدة الامريكية الثلاث عشرة » . وكانت كلمة متحدة (المكتوبة بحرف استهلالى صغير) تعامل كمجرد صفة وليس كجزء من اسم علم . فقد كان أهل المستعمرات لا يزالون فى ريب بصدد مستقبلهم الى حد انهم لم يجرؤوا على ان يجعلوا كلمة « متحدة » جزءا لا ينفصل عن اسم الدولة .

وكان الاسم المتخذ نهائيا ــ وهو الولايات المتحدة الامريكية ــ يشمل كل الصراحة التى كان يمكن ان نتمناها نحن عناصر المستقبل . وكما لاحظ اخيرا الأديب الكولومبى اللامع « جيرمان آرسينيجاس » ان الولايات المتحدة هى الدولة الوحيدة فى العالم التى قدر لها الا يكون لها اسم خاص بها فى الحقيقة : « ان قولنا « **الولايات المتحدة** بمثابة قولنا **الاتحاد الفيدرالى** ، أو **الجمهورية** ، أو **المملكة** وولايات الشمال ليست هى وحدها الولايات المتحدة الامريكية ، اذ توجد ولايات المكسيك المتحدة ، وولايات فنزويلا المتحدة ، وولايات البرازيل المتحدة » . وقد قال بحق أنه اذا كانت المكسيك هى المكسيك ، وفنزويلا هى فنزويلا ، والبرازيل هى البرازيل » فانها كلها جزء من امريكا تماما مثل جمهورية شمال أمريكا بالذات . فعندما اختار ثوار امريكا الشمالية لفظ « الولايات » لوصف انفسهم ، اختاروا أسما غير محدد ، شأنه شأن اى اسم يمكن العثور عليه لكيان سياسى جديد . وبصورة عرضية ، فان أمريكا (وهو لفظ استخدموه لتحديد ولاياتهم) كانت وجودا غير معروف الابعاد فى ذلك الوقت الا بصورة غامضة. كما ان ارضه (وخاصة فى أمريكا الشمالية) لم يكد يبدأ فى استكشافها . فكان من الصعب عندئذ العثور على اسم جغرافى

اكثر بعـدا عن الدقة . أمـريكا كانت لاتـزال مرادفا قريبـا من **الأرض المجهولة** Terrae Incognitae

وكان اختيارهم النهائي لاسم ــ الولايات المتحدة الامريكية ــ اكثر لفتا للأنظار ، كما كان غموضة الحذر أكثر اهمية عندما نتذكر المواهب الأدبية التى تميز بها هذا الجيل . ايمانا منهم بان البلاغة والاحساس الشعرى أمران جوهريان بالنسبة لرجل الدولة العظيم ، فقد خلفوا لنا فى وثائقهم وخطبهم كثيرا من العبارات المعسـولة ، ولكنهم اعطوا لأعظم اعمالهم ــ الا وهو الدولة الجديدة ــ اسـما كان بعيدا عن الشاعرية ، بل تعوزه الرشـاقة فى التعبير ، وخاليا من الصفات الجذابة . وقد اكتسب الغموض مظهر الغطرسـة . فالآن عندمـا ننتحل لأنفسنا ــ نحن مواطنى الولايات المتحـدة فى امريكا الشمالية فقط ــ لقب « الأمريكيين » الشامل ، فاننا لانزال نشهد على الآمال المفتوحة غير العقيدية التى كانت تسـاور آباءنا المؤسسين .

وفى حين ان الاستقلال هو الذى جعل الدولة الجديدة ممكنة طبعا ، فان الاتحاد الكونفدرالى هو الذى جعلها قوية صامدة . ان اعلان الاسـتقلال ــ برغم بلاغته ــ كان يمكن ان يظـل دفينا فى « الأرشيف » الاستعمارى مع الأوراق الأولى للدولة لبرمودا وجزر بهاماوجامايكا ، لو لم يتبع هـذا الاعلان خلال أثنتى عشرة سـنة دستور الولايات المتحدة . وقد نبع طول عمر الدستور وحيوته من ان واضعيه كانوا يهدفون الى توجيه المستقبل وليس الى حبسه داخل سياج . وافضل شاهد على مقصـدهم الذى يتسم بانكار الذات ، هو ان وثيقتهم كانت بالغة الايجاز . فدسـتور الولايات المتحدة ــ الذى يستطيع اى شـخص أن يقرأه فى ساعة واحدة ــ لا يكاد يملأ خمسا وعشرين صفحة . وعلى النقيض من ذلك ، فان دستور الولاية التى أنتمى اليهـا ــ وهى أوكلاهوما ــ يقع فى ١٥٨ صفحة ، فيما عدا التعديلات . ولأن واضعى الدستور الفيدرالى كانوا مدققين وحريصين على قول كلمة « لا » أكثر مما ينبغى ، فقد امدونا بوثيقة مفتوحة للمستقبل بصورة غريبة .

وقد صاحب الايجاز المفيد غموض حافل بالمعانى ، كشفت عنه اولى الكلمات . فالمقدمة تقول :

« نحن شعب الولايات المتحدة – لكى نشكل اتحادا اكثر كمالا ، ونقيم العدل، ونؤمن الهدوء الداخلى ، ونوفر الدفاع المشترك ، ونشجع الخير العام ، ونكفل – نعم الحرية لانفسنا وللأجيال القادمة – نصدر ونقيم هذا الدستور للولايات المتحدة الامريكية » .

ان الكلمتين الافتتاحيتين « نحن شعب » كان مقدرا لهما ان تثيرا المتاعب . ففى غموضهما تتأصل الحرب الأهلية الدامية ، التى نشبت عام ١٨٦١ – ١٨٦٥ . لأن زعماء الولايات الجنوبية – وقد آثروا أن يتخيلوا أن هاتين الكلمتين تعنيان فى الحقيقة « نحن الولايات » – حاولوا ان يثبتوا ان الولايات التى صنعت الاتحاد قادرة على حله .

كان المفروض الا ينفذ الدستور حتى يوافق عليه الشعب . وقد قال « هنرى لى » موضحا « ان هذا التعبير » نحن الشعب « قد ادخل .. فى لياقة شديدة . فهذا النظام مقدم الى الشعب لدراسته ، لأنه اذا ما ووفق عليه من الشعب فسيطبق عليه . ولن يكون ملزما للشعب مالم يصبح قانونا منهم » . لقد كان واضعو الدستور من الحكمة فى اعداد الدستور للأجيال القادمة ، بحيث الا يحاولوا التوسع فى معنى كلمة « الشعب » أو يجعلوه اكثر وضوحا . فهم لم يقولوا « نحن ملاك الأرض » ، أو « نحن الناخبين المؤهلين » .. ان كلماتهم – وقد كانت حينذاك تعريفا عاملا مناسبا – قدر لها أن تكون وعاء الهيا لمعانى جديدة – مثال ذلك ان الحقوق المدنية والسياسية امتدت لتشمل أولئك الذين لا يمكلون عقارا ، والى العبيد السابقين ، والى النساء ، والى الأشخاص الذين تزيد سنهم على الثامنة عشرة ، وربما الى فئات اخرى مازالت الى الآن غائبة عن خيالنا .

كافة اغراض الدستور المدرجة نتجت عن الحاجات الملحة للتجربة الأخيرة لواضعى الدستور . لقد كشفت محن الاتحاد الكونفدرالى المفكك – خلال الحرب الاخيرة – عن الحاجة الى « اتحاد أكمل » كما ان التدخل المستبد من ناحية الحكومة البريطانية ، كشف عن الحاجة الى « اقرار العدل » . وكذلك فان الاضطرابات المدنية الاخيرة (مثل حركة التمرد التى قام بها

« شاى » فى غرب ماساتشوستس وغيرها فى أماكن أخـرى) قد كشفت بوضوح عن الحاجة الى « تأمين الهـدوء الداخلى » ، فى حين ان الحرب نفسها وما تلاها من مخططات الدول الأوروبية ازاء الدولة الجديدة . . كل ذلك كشف عن الحاجة الى « توفير الدفاع المشترك » ــ وهكذا سارت الأمور . وقدر لهذه الروح التجريبية غير النظـرية ان تجعـل الوثيقـة مسـتجيبة بصراحة لحاجات المستقبل .

٢ :

واذا تحولنا عن الأساليب ، واتجهنا الى المؤسسات ، وجدنا احتراما ومراعاة يتسمان بالحكمة والحذر ازاء المسـتقبل . فان سلطة تعديل الدستور (مادة ٥) لم تكن بندا عارضا ، بل جاءت نتيجة لمناقشات ممتدة . وكانت قلة من اعضاء المؤتمر الدستورى بقيادة « تشارلز بينكى » ممثل جنـوب كارولينا تخشى مثل هذا الشرط ، لأنها كانت ترتاب فى حكمة السماح للأجيال القادمة بهدم عملهـا . ولكن « جورج ماسـون » رد قائلا : « ان الخطـة التى ستوضـع الآن سـتكون ناقصـة بالتأكيد ، كما وجـد الاتحاد الكونفدرالى عند التجـربة . وعلى ذلك فان التعديلات سـتكون ضرورية ، ومن الأفضل التدبير لاجرائها بطريقة دستورية سـهلة منتظمة ، على ان يترك الأمر للصدفة والعنف » .

وقد ذكر « جيمس ماديسون » المؤتمر بالدرس الذى تعلمناه من فرجينيا « التى تشكلت فيها أول حكومة ولاية . وبالرغم من ان نواحى النقص فيهـا ظاهـرة واضـحة لكل شخص ، فاننـا لا نسـتطيع تعديلها » . كما أشـار الى التجربة الأوروبية قائلا : « لقد قام الهولنديون بأربع محاولات لتعديل نظامهم دون جدوى . اما التغييرات القليلة التى تمت فيه ، فقد كانت تصحبها اضطرابات وانقسامات ، ونحو الأسـوأ » . وحذر ماديسـون من أنه بدون وسيلة منظمـة لتعديل الدسـتور « فان الخـوف من التجديد ، والاحتجاج الشعبى الصارخ فى جانب حرية الشعب سوف يحولان دون اجراء الاصلاحات الضرورية » .

واخيرا ، فان الدستور قد وصف وسيلة تعديله . والطريق الذى حدده المؤسسون للتعديل لن يكون سهلا أو مستحيلا . كان هناك فقط ستة وعشرون تعديلا . وباستثناء التعديل الثامن عشر (والغائه بالتعديل التاسع عشر) بصدد المشروبات المسكرة ، فان كافة التعديلات كانت لها منزلة دستورية . وفى نفس الوقت ، فان صعوبة اجراء التعديل شجعتنا على ممارسة براعتنا لنجعل الشكل الأصلى للدستور عمليا . ثم ان محكمتنا العليا بملئها الفراغ قد اصبحت نوعا من المؤتمر الدستورى المستمر لاعادة تفسير الألفاظ حسبما تتطلبه الظروف . وأهم من ذلك كله ان عملية التعديل الهادئة قد شجعت على اجراء مناقشة مستمرة حول مطالب التعديل وعاقت استخدام العنف لانجاز ما يغطيه القانون بصراحة تامة .

ان الآباء المؤسسين لم يوفروا فقط (فى المادة ٥) وسيلة لتعديل الدستور ، بل انهم وفروا بالفعل (فى المادة الرابعة) الوسيلة لتعديل الدولة . وقد شك البعض فى حكمة السماح للدولة بالتوسع الى حد ان الولايات الجديدة قد تطغى على الولايات الأصلية . وكان موريس حاكم نيويورك يعارض السماح لعدد غير محدود من الولايات الجديدة بأن تكون على قدم المساواة مع الولايات الثلاث عشرة الأصلية . كان يؤمل طوال الوقت « أن يحصل لولايات الأطلنطى على السيطرة والغلبة فى المجالس القومية »

هذه الروح الاقليمية تغلبت عليها مرة اخرى الروح المفتوحة . فقد راى « جيمس ماديسون » و « جورج ماسون » فضلا عن آخرين بشائر المستقبل الذى لم يسبر غوره . وقد اصر « ماديسون » على رايه قائلا : « ان الولايات الغربية لن تخضع ولا ينبغى أن تخضع لاتحاد جردها من منزلة متساوية مع الولايات الأخرى » . واضاف جورج ماسون قائلا : « اذا كان من الممكن بوسائل عادلة ان نمنع الهجرات الى الولايات الغربية ، فقد يكون ذلك سياسة راجحة . ولكن فليذهب الناس الى حيث يشاءون من اجل مصالحهم . وافضل سياسة هى ان نعاملهم على قدم المساواة ، مما يجعلهم اصدقاء وليسوا أعداء » .

وقد جعلوا عملية تعديل الدولة (على خلاف عملية تعديل الدستور) ميسورة على صورة لافتة للنظر ، فمن الممكن الاعتراف بالولايات الجديدة باغلبية بسيطة فى الأصوات فى الكونجرس . ان الولايات الصغيرة ستكون من كافة النواحى مساوية للولايات الأكبر سنا . ومع هذا جاءت الفقرة الشرطية الهامة بأن الولايات المتحدة سوف تضمن لكل ولاية شكلا « جمهوريا » للحكومة . ولكن بعد المناقشة رفض المؤسسون بحكمة ان يحولوا ذلك الى ضمان « للقوانين القائمة » فى اية ولاية . فقد لاحظ « ويليام هوستون » ممثل جورجيا ان بعض قوانين ولايته كانت مقصورة . ولم يبتغ دستورا فيدراليا جديدا قد يصبح عقبة فى سبيل التغيير . وفى السنوات التالية ، عندما حاول الكونجرس من وقت لآخر ان يعلق شروطا محددة والوانا من الحظر ومتطلبات على قبول ولايات معينة (مثال ذلك ما اشترط على قبول لويزيانا) أعلنت المحكمة العليا المرة تلو المرة انها غير دستورية . لقد كانت هذه المساواة بين الولايات هى التى فتحت الطريق للولايات المتحدة لكى تصبح جمهورية قارية تماما ، بل محيطية ـ واقعة بين محيطين ـ كما أنها فيدرالية .

بهذه الطرق وطرق أخرى لا حصر لها ، اعلن الآباء المؤسسون انفسهم امناء على مستقبل ولسع ممتد . وكانت الفيدرالية هى وسيلتهم العظمى فى ربط المجتمعات التجريبية . وكانت تجارب كل ولاية لا يحدها الا انتهاك حقوق الأفراد وتهديد تجارب الآخرين أو اضعاف المجتمع القومى بأسره . ان خطة : « لاضافة ولاية » البارعة اتاحت لعمل القومية النمو على دفعات .

وقد كتب جيفرسون لادامز ـ بعد مضى مدة تقل عن عشر سنوات عقب المؤتمر الدستورى ـ قائلا ـ « يمكننا ان نركن فى امان الى حكمة خلفائنا فيما يخص علاج الشرور التى تنشأ » .

« .... لم تقدم قط من قبل لوحة للعمل عليها اجمل من اهل الريف فى بلادنا . فهم جميعا يعملون بالزراعة او حرف الصناعة الشريفة ، وهم مستقلون

فى ظروفهم ، ومستنيرون فيما يخص حقوقهم ، وثابتون فى عادات النظام وطاعة القوانين . ارجو ان يكون ذلك هو عصر التجاربه فى الحكومة وان اساسها سيكون قائما على مبادىء النزاهة وليس مجرد القوة . لم نر مثلا لهذا منذ ايام الجمهورية الرومانية ولم نقرأ عنه قبل ذلك . ان مبدا كل حكومة عصبية : اما ان يكون القوة او الفساد » .

ان الدولة الجديدة لن تكون قلعة بل معملا .

فالنظام الفيدرالى ذاته ـ أو اطار الدولة الجديدة ـ هو افضل رمز للروح التجريبية للمؤسسين . وباستعادة الأحداث الماضية نجد ان روحهم التجريبية الملهمة تقف بارزة امام التجريد السماوى المطلق الجديد ، الذى تصور آخرون حينذاك أنه مجسم فى كل دولة عصرية بالفعل . وكان ذلك التجريد هو « **السيادة** » أنها كانت تنتاب الحكومات بصورة مستمرة ، فتملؤها باحساس بالقدرة الكلية قائم على أساس خاطىء . وكان العالم الاقطاعى ـ الذى ساد اوروبا فى القرون الوسطى ـ يرى ان السلطات السياسية والحقوق والواجبات منتشرة عبر الأرض فى مجموعات متنوعة لا حصر لها . وعندما ظهرت الدول القومية الجديدة ـ بعد القرن السادس عشر ـ حاولت كل دولة أن تخلق التجانس فى الجزء الخاص بها من المشهد السياسى .. حاولت كل دولة ان تبنى هرما من السلطة لم تكن له بالطبع سوى قمة واحدة .

وفى اواخر القرن الثامن عشر ، كان المحلمون البريطانيون والمفكرون السياسيون يتخيلون أن السيادة هى اكسير القومية الجديدة . وعرفوا « السيادة » بأنها شىء واحد غير قابل للتقسيم . وفى عام ١٧٧٣ ، أصر « توماس هاتشينسون » حاكم مساتشوستس على رأيه ، قائلا : « من المحال ان يكون هناك هيئتان تشريعيتان فى الولاية الواحدة » . وفى عام ١٧٧٤ ، كتب الدكتور « صمويل جونسون » فى كتابه « **لا استبداد مع فرض الضرائب** » Taxation no tyranny ، يقول : « ليست هناك درجات فى السيادة » وبالنسبة للمستعمرات الامريكية ، كان البريطانيون لا يرون سوى بديلين ، هما اما « الاعتماد المطلق » أو « الاستقلال المطلق » .

ولكن بين الحكومة البريطانية وحكومات المستعمرات الامريكية ، ظهرت بالفعل روح فيدرالية عاملة دون سابق انذار . فبينما كانت بعض الموضوعات تقرر فى لندن ، كانت ثمة موضوعات اخرى تترك لعواصم المستعمرات الثلاث عشرة . وكانت السيادة منتشرة ومقسمة » . كما كانت الروح الفيدرالية الامريكية ـ وهى ثمرة المسافات الاطلنطية ، واتساع المساحات الامريكية ، وبطء الاتصال ـ قائمة فى الواقع قبل ان تنشأ النظرية الامريكية بوقت طويل . وبينما ظل اولئك الذين يحكمون الامبراطورية البريطانية ايديولوجيين ، كان الزعماء الامريكيون فى المستعمرات فرحين بتعلم دروس من موقفهم الجديد . وكانت السيادة المقسمة التى نمت انتهاكا للميتافيزيقا القانونية حقيقة رائدة فى التجربة الأنجلو امريكية ، ومفتاحا للمستقبل السياسى الامريكى .

وقد مهد الآباء المؤسسون الطريق لمد معملهم ذى السيادات المنتشرة والمقسمة الى الجانب الغربى كله من القارة . ماذا يحدث لو ان شعبا ناميا من أصول متنوعة ، ويعيش فى ولايات ذات مناظر طبيعية متنوعة ، ظل يخوض تجارب فيدرالية ؟ لقد أصبحت الولايات المتحدة أمة تبحث عن ذاتها .

٣ :

هذه الروح التجريبية ـ التى جعلت الأمة الجديدة ممكنة سياسيا ـ قدر لها أن تفسر الكثير مما يميز حياة الامة فى القرنين التاليين . ان الوطن الامريكى الانتقالى ، وهو منطقة حدود بين التجربة والفكر ـ حيث ذابت المطلقات القديمة واكتشفت فرص جديدة ـ هذا الوطن يحير المفكرين فى الخارج . اذ أنهم بتمييزهم المشرف بين الواقع والفكرة ، وبين المادية والمثالية ، دفعوا شعبا لايكن احتراما للمطلقات بأنه يتألف من « ماديين » مبتذلين . ففى الثقافات المزركشة بصورة رائعة ـ فى العالم القديم ـ لم يكن من السهل تصور الحياة كتجربة . ولكن الحياة الامريكية كانت تجربة . والتجربة كانت أسلوبا فنيا لاختبار الافكار واعادة النظر فيها . ففى هذا الوطن الامريكى الانتقالى ، كان من الممكن ان تظهر كافة

انواع البدع والتجديدات . وماكان يبدو لأهل العالم القديم ارض المجهول ، كان بالنسبة للامريكيين هو ارض الوطن .

ان الروح التجريبية التى عملت فى الأرض ، والتى اختبرت مختلف الامكانات لخمسين ولاية ، قد وجدت ميادين جديدة خلال القرن التاسع عشر . وما كانت عليه الروح الفيدرالية فى عالم السياسة ، ستكون عليه التكنولوجيا فى تفاصيل الحياة اليومية . فبينما كانت الأيديولوجية تحبس الانسان ، كانت الروح الفيدرالية والتكنولوجيا يدفعان الانسان الى التجربة والخبرة . وكما تختبر الروح الفيدرالية امكانات الحكم غير المستكشفة كذلك، فان التكنولوجيا تختبر الامكانات التى لا تجول بالخيال فى اساليب الخبرة والتجربة العامة .

لم يكن من المدهش ان تصبح الولايات المتحدة مرموقة — او قد يقول البعض موصومة — كأرض للتكنولوجيا . وقد قال الكاتب السويسرى « ماكس فريش » — ذات مرة — فى وصف التكنولوجيا : « انها البراعة فى ترتيب الدنيا على صورة تجعلنا فى غير حاجة الى تجربة » . ولكن التكنولوجيا فى التاريخ الامريكى يمكن ان توصف بأنها « البراعة فى ترتيب الدنيا على صورة تولد تجارب جديدة » . وفى امريكا نجد ان التناقض الذى يتمتع بعراقة القدم بين المادية والمثالية يصبح قديما مهجورا ، مثل مطلق « السيادة » القديم المتحجر الذى مزق الامبراطورية البريطانية وجعل الثورة الامريكية امرا لا مناص منه . ان الروح التجريبية الامريكية فى شكلها السياسى القديم للفيدرالية الامريكية ، وفى شكلها الأحدث المعمم للتكنولوجيا الامريكية ، سوف تصبح الفكرة المهيمنة على الحضارة الامريكية .

٥ ـ اجراء التجارب على التعليم

من بين جميع مؤسسات الأمة ، نجد ان اسهلها تحجرا ـ بعد كنائسها ـ هو كلياتها وجامعاتها . ففى انجلترا مثلا كان النظام السياسي ـ قبل نهاية القرن التاسع عشر ـ يسوده التحرر . واتسع حق الانتخاب ، وطغى التصنيع على الاقتصاد . ولكن « اوكسفورد » و « كمبردج » ـ مركزى الامتياز والسلطة الاكاديمية ـ بقيتا اثرين لاتفهم عاداتهما الا بالتعاطف مع القرون الوسطى . وظل رباط عنق المدرسة القديمة وسترة الكلية من بقايا التعالى الطبقى . وبعد أن توقف الامريكيون عن دراسة اللغة اللاتينية بزمن طويل ـ ولم يعد يستخدم هذه اللغة الا الاطباء فى كتابة « روشتاتهم » ـ ظلت اللغة اللاتينية هى لغة دبلومات الكليات .

وبالنظر الى هذه الظاهرة العالمية للركود الاكاديمى ، فان قصة التعليم العالى فى الولايات المتحدة لافتة للنظر ، وربما كانت فريدة فى نوعها . ففى حين فشلت كلياتنا وجامعاتنا فى أن تكون قلاعا للوضع الراهن هنا ـ اكثر مما هى الحال فى معظم الدول الاخرى ـ فان هذه المؤسسات كثيرا ما غمرتها بسخاء تيارات التغيير . بل لقد أصبحت هذه المؤسسات بعض المجالات ذات الوضوح الشديد للتجربة الديموقراطية .

ولسنا فى حاجة لان نقول ان الظاهرة الامريكية لم تكن ـ بصفة أساسية ـ ثمرة لرغبة الاساتذة فى اذابة الفئات القديمة لخبرتهم المبجلة أو لدخول السوق التنافسية المحفوفة بالمخاطر . بل الاحرى انها كانت ثمرة جانبية للظروف الامريكية على نحو مميز ففى الولايات المتحدة ، نحن نقدم مشهدا ـ غير مالوف على المسرح العالمى ـ للسيولة اللانهائية لفئات المعرفة والتشابك الوثيق بين

ما يسمى « بالتعليم العالى » وبين الحاجات والرغبات المتغيرة ــ بل حتى النزوات ــ للمجتمع الكبير .

١ :

لقد كان للتعليم الامريكى تاريخ غريب . فان نظام التعليم فى معظم الاماكن ــ وبالطبع فى اوروبا ــ كان مبنيا كالهرم . كانت المدارس الابتدائية تهيىء أعدادا كبيرة من الناس للقراءة والكتابة، ثم تنتخب أعداد أقل للمدارس الثانوية . وفى النهاية كانت ترسل نسبة ضئيلة من هؤلاء الى الكليات والجامعات . وكانت هذه الصفوة المختارة فى القمة ، تأتى بالطبع من بين الاثرياء ومن ذوى الأصل الكريم .

أما تنظيمنا ــ الذى لاينبغى أن يسمى نظاما ــ فقد تطور بطريقة مختلفة تماما . لقد أضفت الديمقراطية الامريكية شكلا غريبا على مؤسساتنا التعليمية . فبدلا من أن تكون هذه المؤسسات هرمية الشكل ــ اى ذات قاعدة عريضة ــ اذا بها أشبه ما تكون بالهرم المقلوب ــ اى ان اتساعه فى المستويات العليا . ومن وجهة النظر الاوروبية التقليدية ، نجد أن هذا البناء التعليمى مقلوب راسا على عقب .

ومفتاح هذه الغرابة هو الهوس الامريكى فى تأسيس الكليات .. الهوس الذى كان مزدهرا فى اوائل القرن التاسع عشر . ففيما بين بداية الثورة الامريكية ونهاية الحرب الاهلية ، وهى فترة تقل عن مائة عام ، تأسست أكثر من سبعمائة مما يسمى بالكليات والجامعات ، ثم ماتت . واستمر جنون تأسيس الكليات خلال القرن التاسع عشر ، وبلغ الذروة فى منتصف القرن ، بعد الحرب الاهلية . وقد وفرت المساحة الشاسعة من الارض الفضاء فى قلب القارة الفرصة لرجال الكونجرس المثاليين . لأن يعطوا كل ولاية كنزا من الارض تمول بها كلياتها وجامعاتها الجديدة .

لقد كان « جوناثان بولدوين تيرنز » ــ وهو شاب مرموق

من خريجي جامعة بيل فى نيو انجلند ــ اول من حاول حل مشاكل مزارعي الغرب بتحويل سياج أشجار الزينة الشائكة المعروفة باسم Osage Orange الى سياج يتناسق ذاتيا. وقد حول جهوده التبشيرية الى مساعدة الفلاح بالتعليم . وكان هدف بناء الكليات فى جميع انحاء الغرب ، تلك الكليات التى قدرلها ان تكون فعالة في اعداد الفلاحين لمهامهم ، تماما كما كانت اوكسفورد وكمبردج الارستقراطيتان نشيطتين في تدريب الانجليز على غرف الاستقبال الارستقراطية ، من اجل الخدمة المدنية أو أروقة البرلمان . كذلك فان « جاستن اس موريل » ــ احد أصحاب المتاجر فى فيرمونت الذى أرسله الى الكونجرس الحزب الجمهورى الجديد فى الخمسينات من القرن التاسع عشر ــ تحول الى قضية التعليم بواسطة تيرنر ، وأعد مشروعا بقانون يجعل من الممكن اعداد أكبر برنامج انفرادى للتعليم العالى فى التاريخ الحديث .

وقد خلق هذا البرنامج مؤسسات منحة الارض . فان قانون موريل ــ الذى صدر عام ١٨٦٢ والذى وقعه ابراهام لنكولن في زمن الحرب ــ كان يعطى كل ولاية مساحة من الاراضى الفيدوالية العامة تبلغ ثلاثين الف فدان مقابل كل واحد من شيوخها ونوابها فى الكونجرس . أما الولايات التى لم تكن تملك اراضي اتحادية عامة داخل حدودها ، فانها كانت تمنح سندا يمكنها استخدامه فى الحصول على أراض عامة فى مكان آخر . وبالاموال المتحصلة من بيع هذه الاراضي كانت كل ولاية تبنى مؤسساتها للتعليم العالى .. وتبلغ المنح التى اعطيت للولايات بمقتضي هذا القانون فى مجموعها أكثر من ١٦٠٫٠٠٠ ميل مربع . وثمة قانون آخر لموريل صدر فى عام ١٨٩٠ ، يوفر مخصصات اتحادية سنوية لمساعدة كليات المنح الارضية . وقد زادت هذه المخصصات في القرن الحالى . وكانت الطوائف الدينية تقيم مؤسساتها الخاصة . وفى نفس الوقت ، كان بعض الاشخاص من ذوى الثراء العريض ــ مثل « ماثيو فاسار » و « ليلاند ستانفورد » و « آندرو كارنيجى » و « جون روكفلر » وآخرون كثيرون ــ يعطون من ثرواتهم لتاسيس الكليات والجامعات بغرض المساعدة فى اعداد جماعة المواطنين الديموقراطيين .

وكانت نتيجة كل ذلك أن صارت الولايات المتحدة ــ قبل بداية القرن العشرين بفترة طويلة ــ تملك عددا كبيرا مدهشا من مؤسسات التعليم ، الذي يدعى بالتعليم العالى . ولكن كيف ينبغي اعداد الامريكيين لبلوغ هذه المراحل العليا ؟

اما المدرسة الرسمية العليا (الثانوية) المجانية ، فانها لم تأخذ طريقها الى حيز الوجود وحتى قرب نهاية القرن التاسع عشر . وكانت هي نفسها نوعا من الاختراع الامريكي . وكانت المدارس العليا الامريكية ــ حتى عام ١٨٩٠ ــ تستوعب أقل من ٧٪ من أطفال الدولة الذين تتراوح أعمارهم بين أربعة عشر وسبعة عشر عاما . ولا شك ان النظام الامريكي للتعليم الابتدائي كان يرجع الى الفترة الاستعمارية . وقد أخذ يمضى قدما قبل الحرب الاهلية . ولكن في العالم القديم ، كان من المفروغ منه ــ كما كان امرا شائعا هنا ايضا ــ أن الشخص اذا ما أتم تعلم القراءة والكتابة يكون الالتزام العام بتعليمه قد انتهى . وكان من المفترض بصفة عامة ــ أنه ليست هناك حاجة لأكثر من محو امية النساء . اما الاكاديميات القليلة نسبيا ــ وهي المدارس الاعدادية التي تقدم التعليم الثانوى المطلوب لتمكين الشخص من الانتفاع بالعمل في كلية او جامعة ــ فانها كانت مقصورة على البيض والاثرياء.

وكانت النتيجة بالطبع ، أن الامريكيين كانوا يحاولون أن يبنوا الطوابق العليا في ناطحة سحاب ديمقراطية دون ان يبنوا الاساسات على الاطلاق . ونحن نرى اليوم بعض آثار ذلك . ومن بين نتائج هذا النظام تكليف الكليات والجامعات بمهمة تدريب الامريكيين على الموضوعات التي كان ينبغي أن يدرسوها في المدرسة الثانوية وقد ادى ذلك الى خلق نظام المدارس العليا التي كانت تحمل اسم الكلية ومكانتها . وثمة نتيجة اخرى ، هي ان افضل المؤسسات التي تهدف الى المحافظة على مستويات الجامعات أخذت تتلقى طلابا يفتقرون الى الاعداد .

ومنذ الاعوام الاولى في هذا القرن ونحن نحاول ان نجد طريقا ، لاعادة بناء نظامنا التعليمي ، حتى نتيح للامريكيين

أن يتقدموا بطريقة معقولة . ان تاريخنا لم يتح لنا أن نبنى صفا فوق صف من القاع الى القمة . لقد كنا نحاول فى يأس تحسين مستوى مدارسنا الابتدائية والثانوية ، بحيث أن الناس عندما يصلون الى التعليم « العالى » يكون هذا التعليم عاليا بالفعل .

٢ :

فى عام ١٩٧٧ ، كان فى الولايات المتحدة حوالى عشرة ملايين طالب فى حوالى ثلاثة آلاف مؤسسة للتعليم العالى . وكان تعداد الكليات فى هذه المؤسسات يبلغ حوالى سبعمائة ألف . ولم تفتأ هذه الارقام تزداد باطراد خلال معظم فترات تاريخنا ، فيما عدا فترات الحرب والكساد . ان قانون « جى آى » ، الصادر فى عام ١٩٤٤ ، وبرامجه اللاحقة (١٩٥٢ — ١٩٦٦) كان يمنح فرصا واغراءات لم يسبق لها مثيل للمحاربين القدماء — فى الحرب العالمية الثانية ، والحرب الكورية ، وحرب فيتنام — للالتحاق بالكليات والجامعات . وخلال حقبة طويلة من تاريخنا الحديث ، نجد أن الاعداد المطلقة ونسبة عدد السكان الامريكيين فى تلك المعاهد ومعدل زيادة هذه الاعداد ، كانت أعلى — بصورة كبيرة — منها فى الدول الاخرى المتقدمة صناعيا . وفى نفس الوقت ، فان التعليم الامريكى (بما فيه التعليم العالى) كان يتسم بالافتقار الى أى **نظام** قومى . وكانت تلك — فى الواقع — هى أهم سمة دائمة لتعليمنا . وبدلا من النظام التعليمى ، كان لدينا برنامج قومى واسع الانتشار للتجربة التعليمية . وعلى الرغم من هذا الافتقار الى النظام — بل بسببه — ظهرت بعض السمات فى التعليم الامريكى بصفة عامة .

التوكيد الطائفى والرقابة الطائفية : كانت المؤسسات الامريكية للتعليم العالى قد تم تأسيسها على يد الطوائف ، كما تم تدعيمها بواسطة الطوائف لأغراض معينة . وكان من المتوقع أن تبرر وجودها لهذه الطوائف التى أنشأتها (وهى تعرف عادة بجماعات جغرافية أو طائفية دينية) . ومثال ذلك أن كلية « هارفارد » وهى أقدم مؤسسة للتعليم العالى فى الولايات المتحدة — قد اقامتها عام ١٦٣٦ مستعمرة خليج مساتشوستس لهدف طائفى ، لتوفير وزارة متعلمة مثقفة . وقد تأسست بقانون

من المستعمرة ، كما اقيمت بهبة من « جون هارفارد » ، ثم دعمتها المستعمرة كلها ، من خلال مخصصات عامة وهبات خاصة . ولم تكن الهيئة الحاكمة تتألف من علماء يدرسون هناك (كما هو الحال في كليتي أوكسفورد وكمبردج) بل من مجلس عادي غير اكديمي. وهو الاصل في كافة مجالس الاوصياء التي تحكم الجامعات الامريكية اليوم . وكان من تاثير الضغط الطائفي المستمر أن ظلت هذه المؤسسات الامريكية تحت سيطرة ممثلي الطائفة ، كما خلقت وعززت الضغط لارضاء توقعات الطائفة التي دعمت المؤسسات باموال المجالس البلدية أو الولاية أو عن طريق التبرعات الخاصة. وكان النمو المذهل لكليات الطوائف ـ بعد الحرب العالمية الثانية ـ يعبر بصورة مجددة عن هذا الضغط التقليدي ، كما ساعد على اتاحة الفرص للتعليم العالي تحت رقابة محلية .

قدرة المؤسسات على التكيف وسلاسة الموضوعات العلمية :

مثل هذه المؤسسات التي اسستها طائفة معينة كانت تميل لأن تكون راغبة بل متحمسة لتكييف نفسها لكل ما كان يعتبر حينذاك حاجات ملحة للطائفة التي ترعاها وكما كانت كلية هارفاود تهدف الى توفير وزارة متعلمة مثقفة لطائفة خليج مساتشوستس . كذلك فان مؤسسات المنح الأرضية (التي كان يطلق اصلا على الكثير منها اسم الكليات الزراعية والميكانيكية) كانت تهدف الى تدريب الفلاحين وزوجاتهم من أجل ريف أمريكا . كما أن الكليات العادية كانت تهدف الى تدريب المدرسين . أما العدد الكبير من مدارس القانون ومدارس الاعمال التجارية ومدارس الهندسة ومدارس الصحافة ومدارس التمريض والمدارس التي تمخضت عنهما ، فانها كانت تهدف الى توفير مهنيين ممارسين مؤهلين .

وكانت الفروق التقليدية بين الثقافة العالية والثقافة الهابطة، وبين « الفنون الحرة » والفنون العملية ، وكذلك الفروق الاخرى المقدسة على مر الزمن اخذت تذوب . ومع اضافة المدارس الجديدة « والبرامج » الجديدة والمشروعات من اجل الدرجات والشهادات ـ بحرية وانطلاق ـ كانت حدود الانظمة التقليدية يكتنفها مزيد من الغموض . ففي انجلترا مثلا ، كان هناك اتجاه

الى تعريف التاريخ بأنه ما يلقن او يختبر فى مدرسة المنفوقين فى اوكسفورد ، أو فى الامتحان لدرجة الشرف فى جامعة كمبردج . اما فى الولايات المتحدة ـ حيث لم توجد لدينا جامعة اكسفورد او جامعة كمبردج للسيطرة على المسرح ـ فان الناس يقدمون تعريفاتهم الخاصة . وأحيانا تكون هذه التعريفات ضعيفة واهنة وغالبا ما تكون بدعة ، وغالبا ايضا ما تكون خصبة وموحية . كما اخذت موضوعات جديدة تدخل مصادفة منهج الدراسة ، ومن العسير على الاساتذة ان يقيموا لا فتات تحمل عبارة « لاتعدى » ، كما أن علوم الاجتماع والانسان والنفس والاقتصادوالاحصاءاصبح من السهل ادماجها فى التاريخ أو يبدأ فى تدريسها فى منهج منتظم . وعلم الاجتماع الخاص بشخص ما ، هو تاريخ شخص آخر .

وقد إصبح هناك من التعريفات للموضوعات ما يعادل تقريبا عدد المؤسسات . فان المؤسسات تتنافس فى تعريفاتها للموضوعات العلمية وفى ابتكارها اياها . هذه المرونة بالطبع قد شجعت الموضوعات العلمية حديثة الطراز وذات الاهمية الاخبارية وآخر المواد الموضوعة وتلك التى يبدو انها ذات فائدة مهنية عاجلة . ان مجموعة الاختصاصيين من ذوى المكانة ـ بالنسبة لكل من الطلبة والكلية ـ قد زاد عددها بصورة غير محددة . وكما ذهل الضباط الالمان والفرنسيون الذين يخدمون الجيش الامريكى الثورى لكثرة وجود الامريكيين الذين يحملون لقب كابتن كذلك فان الزوار الاوروبيين اليوم تنتابهم الحيرة على صورة غيرمفهومة بسبب مدى الموضوعات التى يمكن أن يمنح فيها الامريكيون درجة « البكالوريوس » وبسبب « الاساتذة » الامريكيين الذين لاحصر لهم .

المنافسة بين المؤسسات : فى الدول ذات الانظمة المركزية المنظمة للتعليم العالى تكاد توجد سلسلة من المراكز فى المؤسسة وسلم منتظم للمرتبات ، وشروط منتظمة تقريبا للعمالة . أما فى الولايات المتحدة ، فالقاعدة هى التنوع . فقد يتقاضى مدرس فى احدى المؤسسات مرتبا يوازى ما يتقاضاه أستاذ فى مؤسسة اخرى . وقد يكون نصيبه من عبء تدريسه أقل ، وحريته أكبر

فى تعريف وظيفته . ان المؤسسات تتنافس فيما بينها (على اعضاء هيئة التدريس) واعضاء هيئات التدريس يتنافسون للحصول على مناصب فى اماكن اخرى . ويؤدى التنوع فى ظروف حياة الطلاب وفى المستويات الاكاديمية وفى التسهيلات اللامنهجية الى منافسة واسعة بين الطلاب . كما أن التنوع يمكن أن يزيد من الفرص لتحقيق الذات لكل من أعضاء التدريس والطلبة . فالطالب الذى عانى الحرمان فى اسرته او فى تعليمه المبكر يستطيع أن يلتحق بمؤسسة سهلة ، ثم ينتقل الى مؤسسة اصعب ، ذات مستويات أعلى ، وبينما تجد كل مؤسسة الحافز لان تتجانس مع سواها فى منهجها الدراسى وظروف المعيشة ، وأن تستخدم الجهاز الكامل للعلاقات العامة والدعاية ، فان لديها أيضا الحافز لان تتفوق .

هذه المميزات للتعليم الامريكى العالى توجد كلها ــ بشكل أو آخر ــ فى التعليم الامريكى الابتدائى والثانوى . اما الضغط الطائفى والرقابة الطائفية فانهما مكفولان بواسطة مجالس مدرسية منتخبة محليا . فقدرة البرامج على التكيف وسلاسة الموضوعات العلمية تاتى من الضغوط الطائفية . بل ان المنافسة بين المؤسسات نجد التعبير عنها فى المنافسة بين مدارس الابرشيات والمدارس العامة ، وبين الاكاديميات الخاصة والمدارس العامة ، وفى عدد السكان الامريكيين المتزايدى التنقل بين المناطق ، وغالبا ما يتحدد اختيار الاسر ذات الاطفال لمكان اقامتها طبقا لطابع ونوع المدارس العامة المحلية .

: ٣

كل هذه المميزات ذات الجذور التاريخية قد تغيرت واختلطت بوساطة تطورات معينة بلغت ذروتها فى امريكا فى أواخر القرن العشرين . وكادت هذه التطورات أن تمحو فوائد تجاربنا المتوازنة أو تقلل منها كما كادت أن تحل الاغراض المركزية العقيدية ــ أو

مطالب سياسة شعبية متجانسة محل الروح التجريبية لشعب مؤلف من عدة أعراق وكانت معظم هذه التطورات الأخيرة تشجع أو تفرض مزيدا من الانتظام في المؤسسات التعليمية الامريكية .

ا ــ ان تفسير الدستور الاتحادى والقوانين الاتحادية المتعددة هو من اجل تامين الحق الدستورى للطلبة في عدم التمييز في الفرص التعليمية ، والتطور الذى يمثل نقطة التحول هنا هو .. بالطبع قرار عدم التفرقة العنصرية الذى اصدرته المحكمة العليا عام ١٩٥٤ . وثمة نتيجة لهذا القرار ، هي التخفيض العام في الفروق بين المؤسسات ، حيث كانت تلك الفروق تكشف عن مجموعة متنوعة من الاهتمامات أكثر مما تكشف عن الرغبة في التمييز . وهكذا نجد ان هناك عددا اقل من المؤسسات التى يكون جميع طلابها من الذكور او جميع طلابها من الاناث .

ب ــ زيادة مصادر التمويل الاتحادى للتعليم . فهناك مثلا اموال للمبانى والكتب والوسائل السمعية والبصرية ، وبرامج خاصة متعددة ، وتاسيس وزيادة المخصصات من أجل المذاهب الطبيعية القومية في الفنون والعلوم الانسانية (الثقافية) .

جـ ــ زيادة الدعم الاتحادى (الفيدرالى) للبحث العلمى والتكنولوجى والتنمية واستخدام كليات الجامعة وتسهيلاتها . وثمة مثال واضح لذلك ، هو الدعم الاتحادى للبحث الذى بلغ الذروة في أول سلسلة التفاعل النووى في جامعة شيكاغو . ويتالف نصف ميزانية بعض المؤسسات « الخاصة » من مشروعات ممولة اتحاديا . وقد اصبحت المعاهد القومية للصحة ذات نفوذ قوى .

د ــ زيادة دعم التاسيس للتعليم والبحث والنشر . فمؤسسة « روكفلر » ومؤسسة « جاجنها يم » . وعدد كبير من المؤسسات الاخرى الكبيرة والصغيرة تعمل جميعا في الساحة القومية .

هـ ــ زيادة قوة المنظمات المهنية للمعلمين والمجموعات المتخصصة ، واعتماد المنظمات . ومثال ذلك الاتحاد الامريكى لاساتذة الجامعات (الذى يملك قواعد التثبيت ، وكما أن له قائمة سوداء لبعض المؤسسات . وهناك الاتحاد الامريكى للمعلمين ، واتحادات أخرى . وهناك منظمات اجازة واعتماد الكليات والمدارس

المهنية) (مثال ذلك الاتحاد المركزى للشمال ، واتحاد مدارس القانون الامريكية الخ) . اذ ان هذه الاجازة والاعتماد يمكن ان يؤثرا على اهلية المؤسسة لمعـونة اتحادية كبيرة .

و ـ زيادة نفوذ الطلاب الذين تسيطر عليهم عقيدة اصلاحية او احدى العقائد القومية السياسية السائدة .

ز ـ زيادة الضغط من أجل حصص « الاقلية » الجنسية والعنصرية وغيرها، بالنسبة للمدرسين والطلاب . وغالبا ما تاخذ هذه الضغوط شكل البرامج الاتحادية الخاصة وبرامج الولاية ، تنفذها هيئات ادارية او شبه قضائية ، وعن طريق تهديدات الوكالات الاتحادية بسحب المعونة الاتحادية .

على الرغم من هذه الضغوط وغيرها نحو مستويات متماثلة وظروف متماثلة وفرص متماثلة فى المؤسسات التعليمية الامريكية ، فان التعليم العالى الامريكى مازال يحتفظ بكثير من نقاط القوة والضعف التاريخية الخاصة به . فالموقف الامريكى ــ فى أفضل ظروفه ــ قد أتاح فرصة قومية للفوضى الخلاقة والمجموعةالمتنوعة اللانهائية والفرصة المفتوحة ، و ــ فى اسوأ ظروفه ــ كان الموقف الامريكى فوضويا يشجع على التعلق بالقديم .

وثمة نتيجة ملحوظة لهذا الاضطراب العظيم ، هى ما نجده نحن الامريكيين من صعوبة كبيرة فى الاتفاق على تعريف الشخص المتعلم . فنحن نزداد حذرا من التعريفات الانسانية التقليدية للتعليم الحر ، ونزداد ترددا على صورة خطيرة فى ان نجعل معرفة القراءة والكتابة ــ وكذلك سعة الاطلاع بدرجة اقل بكثير ــ جزءا مقوما ضروريا لمن تلقى تعليما عاليا .

ان التجربة الامريكية ــ وهى تجربة اتحادية ذات تقليد قوى للتنوع الطائفى والرقابة المحلية ــ توحى بأن اى مجهود يبذل لتقديم تعريف اكثر ملاءمة واكثر دقة « للشخص المتعلم » غير قابل للنجاح هنا بسبب اعلان او تنفيذ النماذج القومية . ولم تحقق الجهود التى بذلت لارساء معايير قومية فى التعليم نجاحا كبيرا ، وكان

تأثيرها المحدود بطريقة سلبية . « عن طريق العثور على وسيلة للحيلولة دون انتهاك حقوق كافة المواطنين في المعاملة المتساوية والفرصة المتساوية ، او في تنفيذ الحد الأدنى من المتطلبات (مثل التسهيلات المكتبية واعداد رسائل « الدكتوراه » في الكلية او تحرر الكليات من تدخل مجالس الأوصياء .

ان انشغال الامريكيين بالمستقبل ـ الذى لم يكن يعتبر الحاضر والماضي سوى مفتاح له ـ كان يجعل دائما من الصعب هنا ان نغرس احتراما مهذبا لهيئة التعليم التقليدى والمفردات اللغوية المطلوبة لهذا الاكتساب . ولعل اقرب الامور للتعريف الامريكى المقبول بصورة عامة هو قول « آليس فريمان بالمر » : « هذا هو ما يعنيه التعليم : ان تكون قادرا على فعل ما لم تفعله قط من قبل»

٦ ــ معمل الفنون :

رؤية المهاجرين

فى القرن الثانى لعام ١٨٧٦ ، اصبحت الولايات المتحدة معملا ورمزا لتدفق الثقافات العالمية . وكان هذا التقارب والالتقاء ثمرة للطاقة البارعة والعبقرية المركزة ومطامح العديد من الافراد الموهوبين ، رجالا ونساء . كما كانت ثمرة فرعية امريكية للتعاسات الناشئة عن الديكتاتورية السياسية وجنون العظمة والهستيريا الجماعية فى اجزاء بعيدة من العالم . لقد اصبحت الولايات المتحدة متحفا ومصنعا وسوقا للمواهب التى لم تكن تحتمل أو يسمح بها فى اى مكان آخر . لقد شهدت امريكا قوة الفن والأفكار لتطغى على الأمر التشريعى ولتفيض متجاوزة الحدود السياسية .

وفى منظور التاريخ الامريكى ، هناك سخرية بناءة فى الانتاج المؤثر للأمريكيين المهاجرين خلال القرن الماضى . وكان ذلك عندما كانت الهجرة للولايات المتحدة ــ لأول مرة محدودة الكمية . ومع ذلك فان هذه السنوات كشفت عن ان قوى تجديد المهاجرين أشد منها فى اى وقت مضي .

وقد كشف انتاج الفنانين المهاجرين الى الولايات المتحدة ، عن عدم جدوى استخدام القوة لافساد أو تقييد اعمال الخلق . ذلك لأن الفن ينصاع لعكس « قانون جريشام » وهو ان الجودة تطرد الكم . قد تشجع الحكومات النمو السكانى او تحديد النسل.

وقد تعدم أو تسجن أو ترحل الفنانين أو المفكرين . ولكن ليست هناك وسيلة معروفة لمنع الحمل الفنى . ان أشكال الاستبداد الوحشي فى عصرنا قد أصابت ثقافات الدول بالتبلد والضعف . ولكن « عالم » الثقافة بعيد عن نطاق سلطتها . فان الفنانين الذين تثبطهم تلك الدول المستبدة ، أو تعاقبهم ، أو تطردهم ، يعودون للظهور فى المسرح الامريكى البعيد ، عندما ينجحون فى النجاة بحياتهم . وهنا يضيفون الى جدة مواهبهم الأصلية بعدا آخر جديدا ، الا وهو الرؤية بعين المهاجرين .

وخلال القرن الماضي ، ساعدنا هؤلاء الهاربون والمطرودون على انتاج نوع جديد من النهضة الامريكية . انه ميلاد جديد للعالم الجديد نابع من فن وفكر العالم القديم . كانت رسالتهم مؤثرة بصفة خاصة لأنها جاءت مع تغيير عنيف فى الروح الامريكية ، وعلى الرغم منها . وعلى الرغم من جهود بعض الامريكيين الذين يحظون باحترام عميق وثقافة عالية للغاية ، فقد برر الفنانون المهاجرون فى هذه السنوات التقليد الامريكى فى العالمية ضد الاتجاهات الاقليمية الامريكية الجديدة المعادية .

١ :

ان الرمز الملائم لموقفنا تجاه الوافدين الجدد طوال القرن الأول من حياة امتنا ، هو تمثال الحرية . وقد صمم هذا التمثال ليقام بالجزيرة « بدلو » فى ميناء نيويورك ، احتفالا بذكرى العيد المئوى عام ١٨٧٦ . وفى النهاية ، ازاح الستار الرئيس « كليفلاند » فى ٢٨ اكتوبر سنة ١٨٨٦ . وقد نقشت على قاعدته سطور « ايما لازاروس » المعروفة الآن :

« اعطونى التعبين منكم والمساكين »
« جماهيركم المحتشدة التى تتوق الى الحرية »
« النفاية التعسة المحتشدة على شواطئكم »

« أرسلوا الى هؤلاء المشردين الذين قذفت بهم العاصفة »
« وانى لارفع مصباحى بجانب الباب الذهبى »

كانت « ايما لازاروس » تتكلم عن قرن سياسة الباب المفتوح .

عندما وصل الآباء المهاجرون — منذ مائتين وخمسين سنة — لم يكونوا يحملون جوازات للسفر (فيما عدا أنا جيلهم !) وكان من المشكوك فيه التكهن : كم منهم كان يستطيع ان يجتاز فحص مفتش الهجرة فيما يخص اللياقة البدنية والاتزان العقلى . وكانت آراؤهم تتسم بالصبغة الديكتاتورية بصورة خطيرة . وكان جميع الأربعين ونيف من الملايين الذين لحقوا بهم بعد الاستقلال — فيما عدا عدد صغير — لا يحملون جوازات للسفر أو مستندات للهوية ولم يكن مطلوبا منهم ان يقنعوا اى موظف حكومى بمؤهلاتهم لكى يصبحوا أمريكيين .

وبالطبع ، كانت سياسة الباب المفتوح الامريكية التاريخية احدى النتائج الجانبية لاتساع القارة وخلوها وبعدها . ولكنها لم تكن مجرد مصادفة تاريخية . بل كانت تعبر عن مبدأ جديد — الا وهو الايمان الامريكى بحق الفرد فى الاغتراب الاختيارى ، وحقه فى ان يترك بلده ويستقر فى اى مكان آخر وجاء اعلان الاستقلال ليؤكد هذا الحق . وفى عام ١٨٦٨ (عندما طالبت الحكومات الاوروبية بفرض سلطانها القضائى على رعاياها الذين هربوا الى الولايات المتحدة دون اذن منها) أعلن الكونجرس ان حق الاغتراب الاختيارى هو « حق طبيعى واصيل للناس جميعا . وكان القانون الانجليزى العادى يرى ان الرعايا لا يمكنهم تغيير ولائهم دون اذن من حكومتهم . وكان العرف فى العالم القديم — تدعمه المؤسسات الاقطاعية — يعطى الحكام نوعا من الملكية فيما يختص بشعوبهم . عندئذ صارت بلادنا ملاذا للهاربين — لأولئك الذين رفضوا أن يتحملوا الاضطهاد أو الاستبداد لا لسبب الا لأنهم ولدوا فى ظله .

ولكن حق الاغتراب الاختيارى كان ذا شقين . فالحق فى

الهجرة من اى مكان لن ينقذ احدا ما لم يكن لديه الحق في الهجرة الى مكان آخر . وكانت الولايات المتحدة ـ طوال القرن الأول بعد الاستقلال ـ تحتفظ بهذين الحقين سليمين بصورة جوهرية . فلم يكن من حق الجماهير المتعبة الفقيرة المحتشدة التائقة الى الحرية أن تغادر العالم القديم فحسب ، بل كان من حقها المؤكد أن تدخل العالم الجديد . فتدفقت الجماهير على الولايات المتحدة في تبرير كامل لتباهى « والت ويتمان » ـ عام ١٨٥٥ ـ حين قال : « نحن لسنا مجرد امة بل امة الأمم في احتشادها » .

وقد كيفت الولايات المتحدة نفسها مع مهاجريها ، كما كيف المهاجرون انفسهم مع بلادهم الجديدة ، باحدى وسيلتين : العزل او الاستيعاب . فكثيرون منهم كونوا جزرهم الأجنبية (احياء أو اوساطا تحتفظ بتقاليدها) . بل كانوا يأملون أن يحتفظوا بعزلتهم . وقد جاء الى هنا بيوريتانيو نيو انجلند ، في اوائل القرن السابع عشر ، لأن صغارهم قد افسدهم انحلال وهرطقة انجلترا أو الأراضي الواطئة (هولندا) . وبعد مضي قرنين من الزمان ، أخذ الكثيرون ممن هربوا الى هنا من الثورات الأوروبية عام ١٨٤٨ ، يبحثون عن طرق لعزل انفسهم . وكان اشدهم نفوذا هم الألمان الذين يبدو ان عددا كبيرا منهم لم يكن يرغب في الاستقرار في الأرض الامريكية بقدر ماكان يرغب في نقل الثقافة الالمانية . فاحتفظوا باللغة الالمانية في مدارسهم ، واخذوا يقرأون صحفهم الامريكية المكتوبة باللغة الالمانية ، وادخلوا نظام مدارس رياض الاطفال Kinderg artens ، وانضموا الى جمعياتهم الغنائية وفرقهم الموسيقية الخاصة . وقد وصفهم احد المعاصرين بقوله انهم جاءوا الى امريكا لا ليصبحوا امريكيين ، بل ليساعدوا امريكا على أن تصبح المانية .

هذه الجزر الأجنبية الامريكية الغريبة لم تكن دائما تتكون بصورة اختيارية . فاحيانا كانت تظهر لان الوافدين الجدد كانوا منبوذين اجتماعيا او معزولين قانونا . وكان من بينهم اليهود والكاثوليك والصينيون والافريقيون والمكسيكيون والهنود الامريكيون ـ وآخرون كثيرون ـ كانوا معزولين بسبب «عنصرهم».

او بسبب ما هو مفروض انه عنصرهم ، أو بسبب اساليبهم غير المألوفة ، أو النابضة بالحياة ، أو العدوانية او السلبية ، الفاتره او الجياشة . وكانوا يحصنون انفسهم بالاستقرار فى أحياء على أسس عرقيــة أو عنصرية ، أو دينية ، فى مناطــق من الجانب غير المأهول للطــرق الحديدية ، او فى كنائس عنصرية ومدارس تمولها الابرشيات ، أو فى مساكن وجمعيات السانية وجمعيات تاريخية . او فى احتفالات العطلات الخاصة والأعياد ، او فى الجزر المزدحمة بمطاعم « البيتزا » التى تفوح منها روائح التوابل ومحــلات بيع الأطعمة اليهــودية ، ونظائرها التى لا حصر لها وجمعيات الحماية والدفاع ، والجمعيات المضادة للتشهير . وكان رمزهم السياسى هو « البطاقة المتوازنة » .

وكان اهم بديل للعــزل هــو الاندماج والذوبان . فقد ذاب ملايين الوافدين الجدد فى الاتجاه السائد . وقد غيروا اسمــاءهم (أو تغيرت اسماؤهم الى اسماء اخرى يستطيع ان ينطقها ضباط الهجرة) . واخذوا يذهبون الى المدارس العامة ، ويتبادلون الزواج مع المهاجرين الاوائل فى التأمرك . وقد اكتسبوا التلــوين الواقى للكنة الامريكية ، واللابس الامريكية ، ومستوىالمعيشةالامريكى ، وانضموا الى المحافل الامريكية ، وتحولوا الى الكنائس التى تتسم بمزيد من الطابع الامريكى أو الى شــيع امريكية تتبع طوائفهم فى العالم القديم ، واصبحوا انصــارا متحمسين لاحيائهم ومدنهــم وولاياتهم ، كما دخلــوا مجال السياسة . وباختصــار ، اصبحوا تبريرا ـ كما كانوا احيــانا نتاجا معينا ـ لحــركات « امــركة » المهاجرين .

٢ :

فى **نهاية** القرن الأول بعد اســتقلالنا ، تغير الموقف الامريكى الرسمى تجاه الهجرة . اذ اغلق الباب المفتــوح أو ـ على احسن الفروض ـ ترك الباب مواربا الى حد ما . فقد اســتبدل ترحيب « ايما لازاروس » المفعم بالانسانية الدافئة بالصــد الحذر . وخير

تعبير عن الروح الجديدة نجده فى تحذير «توماس بيلى أولدريتشى» الى الأمة فى الجـريدة المتزمتة آتلانتك مانثلى عام ١٨٩٢ ، وذلك لكى يعينوا حراسا على « البوابات التى لا حراسة عليها » .

« تقوم بواباتنا مفتوحة على مصراعيها بلا حراسة ،
« ومن خلالها يتدافع حشد مؤلف من مختلف العناصر ـ
« اناس من الفولجا وتاتار من الاستيبس ،
« واشكال بلا ملامح من هوانج هو ،
« ومن الملايو والتيوتون والكلت والسلاف ،
« هاربون من فقر العالم القديم واحتقاره ،
« جالبون معهم آلهة وشعائر مجهولة ـ
« بعواطفهم الوحشية لتمتد هنا مخالبهم .
« وما اغرب لغاتهم فى الشوارع والازقة ،
« لهجات منذرة غريبة عن جونا ،
« واصوات كان يعرفها برج بابل فى يوم من الايام ! »

وبرغم النظرة الاولى التى يلقيها المهاجر المتعب من فوق ظهر السفينة الى الارض الموعودة ـ فيرى شعلة الحرية المرحبة بقدومه ـ فانه ما أن يطأ الارض حتى يحييه مفتش الهجرة تحية تخلو من الترحيب .

لقد صنعت هذا التحول قوى اجتماعية وفكرية فى الخارج . فخلال الثمانينات من القرن التاسع عشر ، تدفق عدد كبير من المؤرخين الامريكيين الشبان والعلماء السياسيين على الجامعات الالمانية . وعندما عادوا ، جلبوا معهم (مع شـهادات « الدكتوراه فى الفلسفة » التى أصبحت بطاقاتهم للاتحاد ، وهى النموذج الأصلى للتعليم الأمريكى فيما بعد الجامعة) تفسيرا للتاريخ يرجع كافة المؤسسات الجيدة ـ البرلمانات والمؤتمرات والدساتير والمحاكم وحتى حب الحرية ـ الى الأنجلو ساكسون البدائيين . وفى نفس الوقت فان تعداد عام ١٨٩٠ أبان انه لم يعد هناك خط حدود فى الغرب الامريكى . عـذا الغلق المفترض للحدود الامريكية ترجمه المؤرخ « ويسكونسن فردريك جاكسون تورنر » ـ عام ١٨٦٣ ـ

على أنه تفسير حدودى للديمقراطية الامريكية . وقد ارجع تلامذة تورنر ــ بطريقة فيها حنين الى الماضي ــ الفضائل الامريكية الى اختفاء الغابات الداخلية على الحدود ، والى الريف ، ودقوا انذارا بالخطر ضد زحام المدن الامريكية . وعين الرئيس تيودور روزفلت لجنة تختص بحياة الريف ــ عام ١٩٠٨ ــ للعثور على طرق جديدة للمحافظة على القيم الريفية القديمة . وفى عام ١٨٩٣ ــ عندما عانت الأمة أسوأ فترة كساد حتى ذلك الوقت ــ ألقت الاتحادات الجديدة للعمال المهرة اللوم فى بطالتهم على تدفق « الأيدى العاملة الرخيصة » من الخارج .

وتجمعت هذه القوى ــ فى عام ١٩٠٠ ــ فى الحركة التى أغلقت بوابات الهجرة . هذه الحاجة لغلق الحدود تبررها الجهود المبدعة واليائسة أحيانا ــ التى بذلت فى وصف النموذج الأصلى للأمريكى . وقد ادركت الجماعات الصغيرة تعريفات سهلة للمبادىء الأساسية التى ترتكز عليها « الثقافة الوطنية الامريكية » .

وأقوى هذه الجهود وأكثرها نصيبا من الاحترام هى « عصبة تقييد الهجرة » ، التى أسسها عام ١٨٩٤ ثلاثة شبان من ذوي المحتد فى نيو انجلند هم : « تشارلز وارن » و « روبرت ديكوربي» و « برسكوت فارنزورث هول » . لقد اقتنعوا فى « قسم التاريخ رقم ١٣ » ــ الذى يقوم على التدريس فيه « آلبرت بوشنل هارت » ، الأستاذ بجامعة هارفارد ــ بأن المهاجرين « الجدد » قد حطموا المدن الامريكية كما حطم الزنوج ثقافة الجنوب . وانضم الى مؤسسي هذه العصبة قائمة مثيرة للاعجاب من العلماء الاجتماعيين والمؤرخين والعلماء السياسيين ورجال الأدب ورجال السياسة فكان بينهم ــ من علماء الاقتصاد ــ فرانسيس ووكر ، ووليام ريبلى ، وجون كومنز ، وتوماس نيكسون كارفر ، وريتشارد الى ، و ــ من علماء الاجتماع ــ فرانكلين جيدينجز ، وريتشارد مايو سميث ، وادوارد روس ، وروبرت وودز ، ــ ومن المؤرخين ــ جون فيسك ، والبرت بوشنل هارت ، وهربرت باكستر آدامز . وكانت العصبة تضم حشدا من الاكاديميين اللامعين والبارزين بينهم لورانس لويل رئيس جامعة هارفارد ، ووليام

ديويت هايد عميد كلية بلودوين ، وجيمس يونج مدير مدرســــة هوارتون للمالية وتشارلز تونج رئيس الاحتياطى الغربى ، وليون مارشال رئيس جامعة شيكاغو ، وبلاكويل رئيس راندولف ماكون، وماثيون مدير مدرســـة جــورجيا للتكنولوجيا ، وديفيد ســـتار جوردان رئيس ستانفورد . وكان هنرى كابوت لودج هو المتحدث السياسى الخاص بهم .

وكان من نتيجة اصرار عصبة تقييد الهجرة على الفرق الكبير بين الهجرة « القديمة » و « الجديدة » ، أن جعلت كتيبتها الهجرة « القديمة » مثالية تولد عنها أناس من امثالهم ، وخير المهاجرين هم اولئك الذين ارجعوا اصلهم الى اوروبا الشمالية والغربية ، فقد قيل عنهم أنهم أصحاء ومتعلمون ومغـــامرون .. متحمسون لان يصبحوا امريكيين ممتازين ، وفى نفس الوقت ، بالغت العصبة فى رسم الهجرة « الجديدة » ، فوصفتها بأنها حركة قادمة من شرق اوروبا وجنوبها ، أناس يتصفون بعدم المهارة والأمية ، وبينهم بغايا ومجرمون (ومعهم خليط لا محيص عنه من المخبولين) . هــؤلاء المهاجرون « الجدد » الذين لم يجيئوا الا لأنهم لا يجــدون بديلا ـ يصرون بعناد على ممارسة عادات العالم القديم والتمسك بقيمه . ولن يكونوا شيئا الا امريكيين على الرغم منهم .

وقــد تدعمت كل من فكرة المثالية والصــورة الكاريكاتورية (للجدد) بالنتائج التى وصلت اليها لجنة « دلنجهام » التى شكلها الكونجرس عام ١٩٠٧ لبحث مشكلة الهجرة من كافة نواحيهــا . وكان تقــرير اللجنــة الثقيل الممل ـ المؤلف من احـدى واربعين صحيفة ـ عام ١٩١١ ، يتضمن شهادة وادلة من علماء واجتماعيين وعلماء تحسين النســل وعلماء الاقتصــاد وقادة الطوائف ورجال السـياسة يفهم منها ان التقرير يضع حدا تاريخيا فاصلا بين الهجرة القديمة والهجرة الجديدة . وطبقا له ، فكل اولئك الذين هاجروا بعد عام ١٨٨٣ ، جاء معظمهم « على غير رغبتهــم » (تحت اغــراء دعاية البواخــر والســكك الحديدية ومخططات اصــحاب الأعمال الامريكيين لجلب الايدى العاملة الرخيصــة) . وقيــل ان قدامى المهاجرين قد ساعدوا على زراعة الأرض أما المهاجرون الجدد فقد

تدفقوا على المدن ، « حيث تجمعوا سويا فى مجموعات منفصلة عن الامريكيين الوطنيين والمهاجرين القدماء الى حد ان استيعابهم كان بطيئا » .

●

هذه المخاوف ــ التى لا أساس لها من الصحة ــ غذتها أنباء الاضطرابات العمالية . ففى أوائل السبعينات من القرن التاسع عشر ، وقعت حوادث شغب « مولى ماجواير » فى حقول الفحم فى بنسيلفانيا . وفى عام ١٨٨٦ ، هز شيكاغو انفجار القنابل فى « هاى ماركت » . وفى عام ١٨٩٤ ، حدث اضراب عمال مركبات « البولمان » الذى شل السكك الحديدية ، مما دعا الى استدعاء جنود الحكومة الاتحادية . وفى عام ١٩٠٤ ، قامت منظمة عمال العالم الصناعيين وذلك لمحاربة السياسات المحافظة والمتسمة بالصد والاقصاء التى ينتهجها اتحاد العمال الامريكى .

وقد نسبت الاضطرابات العمالية «والاضطرابات الاجتماعية» الأخرى الى « المهجين » من المهاجرين ، الذى وصلوا اخيرا الى الولايات المتحدة . وعندما دخلت الولايات المتحدة الحرب العالمية الاولى ، قيل ان دعاة السلام و « المتهربين من الخدمة العسكرية» قد جاءوا بصفة رئيسية من نفس « هذا العنصر الأجنبى » ، فهم ليسوا امريكيين حقيقيين ، بل هم امريكيون لايزالون منتمين لاصولهم hyphenated . وجاءت الثورة البلشفية عام ١٩١٧ ، لتعطى ممسكا جديدا ــ للقائلين بانتمائهم الوطنى لأمريكا ــ يضاف الى تحيزهم . وقد كتب متحدث من انصار التقييد فى صحيفة نيويورك تايمز عام ١٩١٩ يقول : « ان هؤلاء الاشتراكيين والراديكاليين وعمال العالم الصناعيين والبلشفيين الأجانب يخدمون غرضا مفيدا للغاية ، اذ ينبهون الامريكيين الى خطر الزيادة فى اعدادهم » .

ولم يهدىء رخاء مابعد الحرب ــ الذى ساد فى العشرينات ــ مخاوف الوطنيين او عواطف المناصرين للتقييد ، فقد ازدهرت من

جديد « الكوكلوكيس كلان » وأصبحت قوة قادرة فى سياسة الولايات الجنوبية والغربية الوسطى . وفى عام ١٩٢٢ ، بدأ « لورانس لويل » ، رئيس جامعة هارفارد (وهو نائب الرئيس القومى فى عصبة تقييد الهجرة منذ عام ١٩١٢) دراسة « توزيع العناصر » داخل كلية هارفارد . وقد قرر الأستاذ « آلبرت بوشنل هارت » — فى أنزعاج — أن ٥٢٪ من الطلبة فى مجموعة واحدة من دارسى نظم الحكم . كانوا « خارج العنصر » الذى كانت الكلية تضمه بصفة رئيسية لمدة ثلاثمائة عام » . وكان الرئيس لويل بالحصة التى اقترحها من اليهود يهدف الى منع « عدم التوازن غير العادى للعناصر » فى الكليات الامريكية .

لقد صور عناء المهاجر « الجديد » بطريقة مسرحية فى مأساة « ساكو وفانزيتى » . وكان المهاجرون الجدد من ايطاليا أناسا يتسمون بالرقة ، فهم فوضويون فلاسفة ، ودعاة سلام ، وهم قد تجنبوا الخدمة العسكرية فى الحرب العالمية الاولى . وبعد ادانتهم فى حوادث القتل التى وقعت فى احد مصانع الأحذية فى برينترى بولاية مساتشوستس عبر الحاكم « الفين فولر »عن روح العصر عندما عين الرئيس لورانس لويل ليراس اللجنة المختصة بالنظر فى عدالة المحاكمة . واصر لويل بالطبع على انه لم يكن هناك تاثير « للشعور العنصرى » فى المحاكمة . واعدم « ساكو » و « فانزيتى » عام ١٩٢٧ ، ثم دخلا فولكلور الشهداء الامريكيين الى جانب ناثان هيل ، وجون براون ، وباربرا فريتشي .

وكانت سلالة المهاجرين الأول بالطبع هم الذين قادوا الأمة الى سن برنامج تشريعى يقيد الهجرة (وكان هؤلاء فى نيو إنجلند والجنوب يفضلون ان يطلقوا على أسلافهم لقب «أهل المستعمرات» وقدامى « المستوطنين » او العائلات الأولى) . وقد اظهر انصار التقييد نفس البراعة فى التمسك بحرفية القانون التى استخدمها المشرعون الجنوبيون البيض فى حرمان الزنوج من حق التصويت . وقد ظهرت قوة التقليد الامريكى فى اعطاء حق اللجوء السياسى فى مراوغة الحيل التى اندفع اليها انصار التقييد العنصرى للهجرة .

ففي عام ١٨٩٧ جربت « عصبة تقييد الهجرة » ـ التي ظلت غير راغبة في تطبيق مقياس عنصري واضح ـ وسيلة اختبار معرفة القراءة والكتابة . وقد تبنى السناتور « هنري كابوت لودج » ـ ممثل مساتشوستس ـ مشروع قانون الالمام بالقراءة والكتابة ، آملا بهذه الطريقة ان يستبعد « الطبقات غير المرغوب فيها » . وكان هذا المشروع بقانون يستبعد اي مهاجر غير قادر على قراءة اربعين كلمة بأية لغة . ومر هـذا المشروع في مجلسي الكونجرس ، ولكنه رفض على يد الرئيس « كليفلاند » اذ استعمل حق «الفيتو» معلنا أن هـذا المشروع ينتهك التقليـد الامريكي . وقد فشـلت المحاولات المتكررة لسن مشروع قانون الالمام بالقراء والكتابة . أما مشروع القانـون الذى أجيز في عام ١٩١٣ ، فقد رفضـه الرئيس « تافت » . وأما المشروع الذى اجيز عام ١٩١٥ ، فقد رفضـه الرئيس « ويلسون » .

وفي فبراير عام ١٩١٧ ـ عنـد ارتفـاع موجة الوطنية التي سـبقت دخولنا الحرب العالميـة الأولى ـ تبنى الكونجرس قانونا جديدا للهجرة شاملا . وقد تضـمن هـذا القانون اختبار معرفة القراءة والكتابة ، واضـاف فئات جديدة الى قائمة المسـتبعدين (مدمنى الكحوليات ، المتشردين ، والأشـخاص الذين يعانون من عقدة النقص السيكوباتى) كما أقام هذا القانون « منطقة محظورة » ـ في جنوب غرب المحيط الهـادى ـ تستبعد المهـاجرين الآسيويين الذين لم يشملهم من قبل قانون الاستبعاد الصينى الذى صدر عام ١٨٨٢ ، واتفاق الجنتلمان الذى أبرم ١٩٠٧ ــ ١٩٠٨ . وقـد مر هذا القانون برغم رفض الرئيس ويلسون .

وكانت المناورة التالية لأنصار التقييد هي سلسلة من القوانين التي صدرت في أعوام ١٩٢١ ، ١٩٢٤ ، ١٩٥٢ ـ وقد حددت هذه القوانين عددا مطلقا (ظل حوالي ١٥٠,٠٠٠) لمجموع الهجرة السـنوية . وقد تم توزيع هذا العدد على أساس حصة لكل جماعة قومية مبنية على نسبة الذين ينتمون الى هذا الأصل في تعداد الولايات المتحدة في سنة معينة (في عامى ١٩١٠ ، ١٨٩٠ أو في عام ١٩٢٠) . وسرعان ما ظهرت فجاجة مثل هذه الوسـيلة . فقد كان من المسـتحيل

تقريبا تدبير اى تعريف دقيق « للأصول القومية » للشعب الامريكى المرن المتخالط . ومع ذلك فان حقائق علم الاجتماع خضعت لمطالب السياسة والتحيز .

٣ :

تمخض عن العالم المضطرب ـ فى النصف الأول من القرن العشرين ـ مئات والوف من اللاجئين . وتعبير « أشخاص مرحلين » ـ وهو اضافة كئيبة لمفردات القرن العشرين ـ هذا التعبير يصف أناسا لم يمنحوا حتى الفرصة ليصبحوا « لاجئين » . وقد ظهر هؤلاء بالآلاف نتيجة الفاشية والنازية والشيوعية وغيرها من أشكال الديكتاتورية ، ومن أبسط أشكال الغلو المصطنع فى الوطنية فى « الدول » الجديدة المتزايدة . اذ انهم ايقظوا الضمير الامريكى ، واثبتوا بالفعل ان التقليد الامريكى للباب المفتوح لم يمت بعد . فان عددا من القوانين الانسانية (مثل قانون الأشخاص المرحلين ـ الصادر فى عام ١٩٤٨ ـ وقانون اعانة اللاجئين الصادر فى عام ١٩٥٣ ، والقوانين الصادرة فى عام ١٩٥٨ بالسماح بدخول اللاجئين السياسيين المجرمين وضحايا الزلازل ، وذوى الاصل الهولندى من اندونيسيا) كل هذه القوانين جعلت باب الدولة يظل مواربا . واخيرا ، فبمقتضى قانون الهجرة الصادر فى عام ١٩٦٥ ، الغى نظام حصص « الاصول القومية » . ولكن القيد الكمى ظل قائما . وبعد عام ١٩٦٥ ، عادت الولايات المتحدة فى حذر الى تقليد الباب المفتوح . وكان الحد الأقصي السنوى البالغ ٢٥٠,٠٠٠ لايزال يفوق حق اللجوء الذى تمنحه الدول القديمة . ولكن حق اللجوء ـ طبقا للمعايير الامريكية التقليدية ـ انكمش الى شح غير امريكى .

ان العقود الاولى من القرن العشرين حقبة بلغت فيها سياسة الدولة الجديدة الخاصة بالهجرة المقيدة اقصي قوتها . فلم يات سوى عدد قليل من سلالة الانجلو سكسون المحترمة . وثمة عدد كبير من الفنانين والمفكرين المهاجرين ـ ان لم يكن معظمهم ـ كان

لابد من تصنيفهم فى الهجرة « الجديدة » غير المحترمة افتراضا ، والتى ازدادت بسرعة بعد الثمانينات من القرن التاسع عشر . كانوا يأتون من « جنوب وشرق أوروبا » .. من ايطاليا وروسيا وايتوانيا والمجر وآرمينيا .. من المناطق الغريبة للغاية ، التى لشد ما أخافت « توماس بيلى أولدريتش » وزملاءه فى نيو انجلند كان الكثيرون منهم يهودا . وكان معظمهم لسبب أو آخر يدخلون فىطبقات يتمنى أنصار التقييد لو استبعدوها ، وكانت قوانينهم تهدف الى استبعادهم .

والفنانون الذين دفعتهم المذابح المنظمة البولندية والروسية كما دفعهم ظهور الشيوعية فى روسيا راوروبا الشرقية وظهور الفاشية فى ايطاليا والنازية فى المانيا ــ هؤلاء الفنانون كانوا يفتقدون ذلك الدافع « التلقائى » الذى جعل منه انصار التقييد مثلا أعلى فى أسلافهم . كانت تلك الحقبة بغير منازع هى حقبة الهجرة « غير الاختيارية » . كان الناس يأتون ــ كما قال « دى. اتش . لورانس» غير متجهين نحو شيء ما ، بل يبتغون ــ أساسا ــ « الهرب » . اما الكوارث التى كانوا يهربون منها فلم تكن زلزالا او مجاعة او كارثة طبيعية ، انما كانوا يهربون من زلازل صنعها الانسان . والحضارة الامريكية بصورة مباشرة ، والحضارة الانسانية بصورة غير مباشرة ، سوف تحصدان منافع لم يتنبأ بها احد من جراء حقد العالم القديم . ولان هؤلاء الفنانين كانوا مرحلين ولاجئين من معتقدات جديدة ومحاكم تفتيش جديدة ومذابح منظمة ذات اسلوب جديد ومن أشكال التمييز العنصرى فى القرن العشرين ، فقد كان لديهم شيء خاص يريدون تقديمه .

***

كان الحشد اللامع من الفنانين والمهندسين المعماريين والكتاب والعلماء الاجتماعيين والعلماء الذين قدموا فى الثلاثينات والاربعينات من القرن العشرين ــ هاربين من محرقة النازية ــ يشكلون أبرز جماعة . ولكنهم لم يتفردوا فى ذلك . كانت خصائصهم تمثل آلافا من الهاربين الآخرين من المحارق الاخرى ، وبمعنى جديد ،

فانهم كانوا « مهاجرين جددا » . فعندما وصل هؤلاء الرجال والنساء ، كانوا قد تلقوا تعليمهم بالفعل فى أوطانهم . وهكذا فقد وصلوا وهم فى قمة انجازهم . لقد طردوا — فى الواقع — بسبب حيويتهم وابتكارهم وامتيازهم ، فتلقتهم الولايات المتحدة وهم فى تمام نضجهم ، دون تكلفة اجتماعية فى تنشئتهم وتدريبهم . ولكن الميزة الاقتصادية كانت تافهة اذا قورنت بمنفعة أخرى خاصة .

أولئك الذين كانوا قد تشكلوا تماما وتم اعدادهم بالفعل — وكانوا يعدون بالآلاف — كان بوسعهم أن يضيفوا شيئا خاصا الى الحضارة هنا ، والى العالم من خلال أمريكا . فقد جلبوا معهم أكثر الاساليب الاوروبية تقدما وابتكارا — فى الصناعة والتفكير — ليقوموا بلقاء جديد مع المشهد الامريكى . ولم يكن ذلك فى عقول سياح أو مسافرين عابرين ، بل فى أشخاص أمريكيين جدد . كان كل منهم معملا فذا للروح التجريبية ، وقد جلبوا معهم رؤية المهاجرين .

لم يكن هذا الحشد اللامع المهاجر متخصصا فى الفن فحسب، بل كان مؤثرا فى العلوم والعلوم الاجتماعية خلال هذه السنوات . وكانت قائمة العلماء والرياضيين الذين وصلوا الى الولايات المتحدة تتضمن « البرت اينشتاين » و « ماكس دلبروك » و «ليو زيلارد» و « انريكو فيرمى » و « جون فون نيومان » . ومن بين العلماء الاجتماعيين وعلماء النفس ، كان هناك « فلوريان زنانيكى » و « منه آرنت » و « هانز مورجنثو » و « فرانز الكساندر » و « فيلكس وهيلين دوتش » و « هربرت ماركيوز » و « كارل ويتفوجل » و « تيودور آدورنو » و « بول لازارسفلد » و «ولف جانج كوهلر » و « كوته لوين » . وهؤلاء هم عينة فحسب . أما قائمة الملحنين والموسيقيين ومؤرخى الفن وناشريه ، فانها تظهر نفس الامتياز .

لم تكن لدى هؤلاء المهاجرين الجدد أية رغبة فى نقل مؤسسات العالم القديم ، أو اضفاء الصبغة الاوروبية على أمريكا ، بسبب ما كانوا قد رأوه وبسبب تنكر أوطانهم لهم شخصيا . لقد أثروا

امريكا ليس فقط بأملهم ووعدهم ـ كما فعل المهاجرون الاوائل ـ بل كأناس وجدوا بالفعل وعدهم واثبتوا جدارتهم للانجاز ، ورحبوا بالفرص الجديدة لاجراء التجارب .

لم يحدث أن تحرك فكرنا وفننا وثقافتنا بمثل هذا العمق ، او تشكل بمثل هذه العظمه ، عن طريق تيارات قادمة من الخارج فى اية فترة من فترات التاريخ الامريكى . ولم يحدث أن أثريت الحضارة الامريكية مثل هذا الثراء ، فى اية فترة مقارنة عن طريق التيارات الجديدة . وبرغم ما كان مقدرا لمعظم هؤلاء المهاجرين أن يصبحوا « متأمركين » بسرعة مذهلة ، فانهم احتفظوا ـ فى ثبات ـ بشخصياتهم اللامعة التى جلبوها معهم ، والتى لم يكن من المحتمل أن تنشأ فوق أرض أمريكية . وخلال هذه السنوات نفسها ـ عندما تعهدت الولايات المتحدة رسميا بخفض أعداد المهاجرين ـ زادت قوة التأثير المحفز للمهاجرين على الثقافة الامريكية أكثر منه فى أى وقت مضى .

واذا كان هذا يشهد على كرم الضيافة الامريكى الذى لايقهر والذى لايمكن أن يسن تشريع لالغائه ، فانه يشهد أيضا على طابع الفن والفكر الذى يتخطى الحدود القومية ، كما يشهد على خصوبة التربة الامريكية وقدرتها على التجدد . وكذلك فانه يثبت قدرة امريكا على أن تكون منبرا للمناقشة وسوقا حرة للعالم ، فهى ليست فحسب « أمة الامم » بل هى « أمة دولية » .

٧ ـ الآلة الخصبة

مفاتن الارض طالما كانت موضوعا للاطراء والغنـاء ، اذ أن الارض هى المصدر المعروف للقوة . ونحن مازلنا نستطيع أن نرى صدق الاسطورة اليونانية التى روت أن العملاق « آنتايوس » لم يكن يقهر ما دام فى امكانه أن يلمس الارض الام . ولقد تغلب عليه هرقل ــ فى النهاية ــ برفعه فى الهواء . وكان «توماس جيفرسون» يضع ثقته فيمن يعيشون قريبا من الارض . فقد كتب فى مذكراته عن فرجينيـا يقول : « ان أولئـك الذين يعمـلون فى الارض هم المختارون من الله ، اذا كان الله قد اختار شعبا على الاطلاق، وجعل من صدورهم مستودعه الخاص للفضيلة الحقيقية الاصيلة » . واضاف جيفرسون قائلا : ان الحياة على مقربة من الارض تجعل الناس اقوياء وفضلاء ، لانها تجعلهم مستقلين .

كما كتب يقول : « ان فساد الاخلاق فى جمهرة الزراع ظاهرة لم يضرب لها عصر من العصور او امة من الامم مثلا . انها العلامة التى يحملها أولئـك الذين لاينظرون الى السـماء او الى تربتهـم وصناعتهم من اجل بقـائهم ورزقهم ــ كما يفعـل المزارع ــ بل يعتمدون على مصائب ونزوات العمـلاء . والاعتماد يولد الخنوع والفساد ويخنق بذرة الفضيلة ويعد ادوات ملائمة من اجل خطط الطموح » . وقد اعجب الامريكيون ــ قوبو الملاحظة ــ ليس بما يستطيع الناس ان يفعلوه فى الارض فقط ، بل أيضا بما تفعـله الآلة مع الارض فى الناس .

وبما أننا قد انتقلنا الى عصر الآلة ، فيجب أن تكون لدينا نفس الرؤية الكاملة . يجب أن نتأمل فى اعتزاز وأمل (وربما فى بعض الحذر) ما فعله الانسان فى الآلة ، وما فعلته الآلة — وماقد تفعله — فى الانسان .

١ :

كان للآلة — على النقيض من الارض — طابع سيىء . وقدعبر جيفرسون نفسه عن تفضيله القوى « المعنوى والمادى للانسان الزراعى على الانسان الصناعى » . وقال جون ستيوارت ميل : « انه من المشكوك فيه ان كانت كافة الاختراعات الآلية التى تمت حتى الآن قد خففت من الكدح اليومى لأى كائن بشرى » .

وتعلن مجموعة من الادباء عن خطر الآلة . فقد حذر ثورو قائلا : « لقد أصبح الرجال آلات لآلاتهم » ، وأعلن ماثيو آرنولد « ان الايمان بالآلات .. هو الخطر المحيق بنا » . وشخص جورج مور — عام ١٨٨٨ — الداء قائلا : « ان العالم يموت من الآلات . هذا هو المرض الخطير ، بل هذا هو الطاعون الذى سوف يكتسح الحضارة ويدمرها . وسوف يكون على الانسان أن يثور عليها ان عاجلا أو آجلا » . وقد وصف الآلات مفكر عصرى للغاية — مثل برتراند راسل — قائلا : « انها بشعة وبغيضة ، لانها تفرض العبودية » . ولكن الادباء — على الاقل الى ان أصبحوا يعيشون من الآلة الكاتبة — لم يتسموا قط بالتسامح المغالى فيه بالنسبة للابتكارات التى توسع أفق الحياة وتذلل طريق الانسان العادى. وفى البداية ، كانت الشكوك تساور العلماء ازاء المطبعة التى قدر لها أن تضع مادة القراءة فى أيدى السواد الاعظم من الناس .

ان الآلة هى الشاهد العظيم على قوة الانسان . فالارض كانت موجودة عند بدء الخليقة ، ولكن كل آلة هى من صنع الانسان . وقوة الآلة هى قدرة الانسان على صنع عالمه من جديد ،

وعلى سيطرته عليه من أجل غاياته الخاصة . لابد أن يكون ذلك مصدر فخر للبشرية . ولعلها ايضا مصدر خطيئة الفخر » بالمعنى البيورتيانى الخاص . وقد تغرينا تلك القدرة على التغاضي عن نواحى العجز والقصور فينا ، فنضع انفسنا فى مكان الله . هناك بعض ملامح غريبة بل غامضة للآلة . وباختراع الآلات ، جلبت الكائنات البشرية فى العالم انواعا جديدة غريبة للغاية : ادوات واسلحة ومبتكرات من المعدن ومن البلاستك لم يسبق تخيلها قط . لقد أنتجنا سائلا كيميائيا يسبق أية حشرة فى قدرته على استهلاك النباتات . كما أنتجنا أشعة « الليزر » العجيبة التى تفوق قدرة اى حجر طبيعى أو معدن فى قطع الشرائح : كما أن تأثيرها يمتد عبر مسافات بعيدة . وكذلك أنتجنا مركبة تفرز سائلا فى الجو يتضاءل بجانبه التلوث الذى يحدثه روث الخيل . كما أن هناك آلة حاسبة تتفوق على اى كائن حى فى الحساب ، وفى معالجة الصيغ المعقدة .

كل مخترع ساحر .. « مندوزا » . وما ان اخترع الجنس البشرى المطبعة والبندقية ومحلج القطن والتليفون والسيارة والطائرة والتليفزيون ، حتى كان لكل من هذه الاشياء حياته الخاصة . كان علماء الاحياء — قبل دارون — يعتقدون خطأ أنه ما من صنف من النباتات أو الحيوانات يمكن ان ينقرض ، لان ذلك يوحى بالنقص فى خطة الله الاصلية . ولكن كل آلة لديها بالفعل بعض صفات نوع لاسبيل الى انقراضه . وهناك امثلة قليلة لآلات طواها النسيان مدة قرون ، قبل أن يعثر عليها مرة أخرى . ولكنها نادرة .. مجرد مغريات عجيبة تاريخية .

والمجتمعات كالافراد تجد فى النسيان مزيداً من الصعوبة عما تجده فى التذكر . فما ان تدخل الآلة مستودع الذاكرة ، ما أن تصبح بندا فى الاستعمال اليومى ، وما أن توصف فى الخطابات والكتب والاعلانات ، وتسجل فى مكاتب براءات الاختراع ، حتى تحتاج الى شكل من أشكال السحر لم يخترع بعد لمحوها من التجربة والذاكرة البشرية .. بل انها اذا القيت على كومة من

« الخردة » ، فان ذلك قد يثبت انه طريقة لاضافتها الى سجل مؤرخ وعالم آثار فى المستقبل ، ولان الآلات تصنع عادة من مواد غير عضوية ، غير قابلة للتحلل البيولوجى بسهولة ، فان هياكل الآلات تظل متناثرة عبر المنظر الطبيعى . وكما تبين مقابر سياراتنا ، نجد أن الآلات من الصعب دفنها ، وليس من السهل حرقها وتحويلها الى رماد .

وفى العادة ، عندما تدخل آلة حياة حضاراتنا ، فانها تنتج آلات اخرى ، الى جانب مشروعات ومؤسسات جديدة . والآلة لديها قدرات غريبة على التهجن ، وعلى أن تصبح مضيفة او طفيلية أو اعفينا يعيش على المادة الميتة . ان الراديو ووسائل تكييف الهواء تجد مواطن جديدة داخل السيارة . كما أن آلات ضخمة تظهر لتضغط السيارات الميتة وتعطيها شكلا جديدا . كذلك فهناك آلات مدمجة صغيرة تصنع جزما أنيقة للقمامة من دفايات المنازل . وهناك أيضا آلات تستخدم لزيادة المعرفة ونشرها . فالمطبعة جعلت من الممكن اقامة مدارس رسمية ومكتبات عامة ، بالاضافة الى الناشرين والمؤلفين الذين يستطيعون أن يعيشوا من كتاباتهم . والسيارة أوجدت الضواحى ، وشبكات من الطرق البرية ، والمتاجر التى يستطيع الناس ان يشهدوا ما يعرض فيها أو يشتروا منها وهم فى سياراتهم .

وقلما تختفى بالفعل آلة تم اختراعها . فهى تميل لان يطويها النسيان الى حد ما ، أو لان يتحول دورها فتقوم به آلة أخرى تؤدى عملها الاصلى بمزيد من السرعة ، ومزيد من الاقتصاد ، أو بمزيد من اثارة الاهتمام . فالتليفون لم ينقرض بعد اختراع الراديو والراديو لم ينقرض بعد اختراع التليفزيون . كما بقيت الصحيفة اليومية بعد اختراع كل هذه الآلات . وكذلك فان الدراجة البخارية لم تقض على الدراجة . وبينما يبدو أن السيارة والطائرة قد فازتا فى الصراع من اجل البقاء ضد السكك الحديدية ، فان السكك الحديدية مع ذلك قد اثبتت انه لاسبيل للاستغناء عنها ، الى حد اننا

نبذل جهودا باهظة التكاليف لانعاشها . ان حياة الآلات تتمثل بدقة فى اللغة الجديدة للحاسبات الالكترونية عندما نتحدث عن جيلها الاول أو الثانى أو الثالث .

اختراع آلة جديدة فى العالم ــ اذن ــ أشبه بولادة طفل فى العالم . فهى مسألة خطيرة ، ذات نتائج لايمكن التنبؤ بها . وكما أن القــدرة على صــنع الآلات هى القـــدرة على انجاز يزيد على ما يمكن أن نتخيــل بطـرق لا يمـكن التنبؤ بهـــا . وبينمـــا قد يحاول الطغاة أو الحكومات الديكتاتورية أن تكبح خيال المخترع، او أن تحد من موارده ، فلم تخترع بعد طريقة فعالة تحد من فيض الافكار ، ولا آلة فعالة بصورة دائمة للتحكم فى العقل البشرى . لم يكتشف بعـد نوع من الحبوب يكبح مولد الاختراعات . ولكن الحكومات والمؤسسات الاخرى ، يمكنها أن تشجع تزاوج العقول ، ويمكن أن تزيد من معدل مولد الاختراعات .

ليس هناك مخترع يمكنه أن يعرف بدقة فترة تكون الاختراع او الزمن المطلوب لبلوغ الاختراع سن النضــوج . ولا يمـكن لاى مخترع أن يبدأ فى تخيل نتيجة نجاحه . ان « ايلى هويتنى » بلا شك لم يكن يحاول أن يشعل حربا أهليــة . كما أن « ســيروس ماكدرميك » لم يكن ينتوى أن يخلى مزارعنا من سكانها . كذلك لم يكن « هنرى فورد » يرغب فى أن يحول الاماكن المختارة فى المدينة الى مواقف لانتظار السيارات . فاختراع آلة من الآلات يشبه مولد الطفل ، لانه هو الآخر يتم بدافع من الاغراض الشخصية والعواطف الخاصة ، ولانه مثله خطير ولا يمكن الغاؤه .

٢ :

لقد بدانا ندرك ــ وندرك فحسب ــ القوى السحرية للآلة. ولم نكتشف الا ببطء انه مهما تكن صعوبة حكم امة الامم هــذه ، فقد يكون من الاصعب ان نحكم امة الآلات . لقد حققنا نجاحا من

النجاح فى ترويض السيارة . واخذنا نتبين أن الطائرة ليست اسلس قيادا من السيارة . ان الحضارة الامريكية فى القرن العشرين — ولعلها أكثر من أى حضارة اخرى فى التاريخ — هى ثمرة تراكمية لاعمال حمل ابداعى لاحصر لها ، اعمــال عاطفية عديمــة التفكير وخيالية (كما انها عرضية فى بعض الاحيان) . بل ان مدننا ثمرة من صنع الآلة .

ومع ذلك ، فاننا لانكاد نكون قد بدانا فى ان نحكى القصـــة لانفسنا . نحن نعرف أسماء بعض المخترعين المبرزين ، من امثال ايلى هويتنى وسيروس ماكدرميك والكسندر جراهام بل وهنرى فورد وتوماس اديسون . وما هؤلاء سوى رموز فقط ، تماما مثل ابطالنا السياسيين والعسكريين .. من أمثال آدامز وجيفرسون وواشنطون وجرانت ولى وآيزنهــاور .. رموز تذكرنا بآلاف من المواطنين والجنود .

ومثلما فعل هؤلاء الابطال ، فان مشاهير مخترعينا يجب أن يثيروا اهتمامنا بالمخترعين العاديين الذين يعيدون تشكيل حياتنا . فأولئك الذين كان لهم أعمق الاثر فى الحياة اليومية — فى امريكا — والذين غيروا طعامنا ، ومأوانا ، وملابسنا ، ووســـائل لهونا ، ومصادر المعلومات .. أولئك الذين كانوا اول من صنع الحقيبـــة الورقية ، وآلة الطباعة الدوارة (الروتارى) والصندوق القابل للطى ، وغلاف السلوفان ، وآلة عرض الصور ، والآلة الحاسبة ، والترانزستور ، قلما يظهرون فى كتب تاريخنا .

ان صناع الآلات اليومية الاستعمال ، الذين يعيدون صنع حياتنا اليومية ، يظلون مجهولين . وذلك لان عمل المخترع غالبــا ما يكون عملا مشتركا ، وغالبا ما يكون متزايدا بطريقة بطيئة أو عرضيا . فقد كان « والتر هنت » يعمل بجد — ولكن بغير نتيجة فورية — فى اختراع آلة للحياكة . ولكنه عن طريق المصادفة اخترع — فى بضع ساعات — الدبوس المأمون الذى لاغنى عنه . كذلك يظل المخترعون مجهولين لان اعمالهم لاتتم على منبر عام ، أو فى ساحة القتال ، بل فى عليات المنازل ، وفى « جراجات » ، وفى معامل عليها حراسة مشددة .

لعل اكبر خطر فى امريكا ــ التى تسيطر عليها الآلة ــ هــو الاغراء بالاعتقاد بأن عالمنا يمكن التنبؤ به بأكثر مما هى الحقيقة . فكل انتصار لتكنولوجيتنا يغرينا بأن نعيد رسم جغرافية خيالنا. اننا ننتقل من عالم الرومانسية والمغامرة ، الى المجالات الواقعية لما نعرفه بالفعل .. من عالم مفتوح يكتنفه الغموض الى عالم مسور بهوامش من الخطأ . وفى عام ١٩٦١ ، أعلن « اسحاق آسيموف » اننا قد دخلنا العصر الذى « هرب » اليه مؤلفو القصص العلمى منذ جيل مضي . فالصفحات الاولى من الصحف تبدو أشبه ببعض القصص المسرفة فى الخيال ، والتى كانت تنشر فى الثلاثينات . ورئيس الولايات المتحدة يمكنه أن يدعو لبذل جهد متناسق وجماعى لوضع رجل على القمر " فيقابل باستجابة حماسية رزينة ولكن القصص العلمى يعانى من مرض لايعانى منه اى فرع آخر من فروع الادب . وفى كل عام نشهد القضاء على موضوعات قصصية محتملة .

ان الكميات المتزايدة من المعرفة الفنية (التكنيكية) ،والعدد المتزايد من التخصصات تهدد بتضييق الخناق على خيالنا . وما كان يراه الخبراء مستحيلا اتضح انه انجازات تكنولوجية مذهلة فى القرن العشرين ، ابتداء من تفتيت الذرة الى الهبوط على القمر .

لقد اصبحنا نحن المواطنين العاديين ــ جماعة المواطنين الديموقراطيين فى امريكا المنتصرة تكنولوجيا ــ اكثر من أى شعب آخر قبلنا ــ نعتبر الانتهاكات اليومية للفطرة السليمة التى كانت سائدة فى الماضي أمرا مفروغا منه . فنحن نقبل امكان طيران الصور خلال الجدران ووصولها فى الحال لمكان على مسافة آلاف الاميال ، كما نقبل امكان السيطرة على المناخ ، وأن القلب البشرى يمكن اصلاحه او استبداله . وفى استكشاف الذرة الخفية ، نحن لانحتاج الى كثير من الاقناع كالذى احتاج اليه « فردينناند » و « ايزابيلا » لاستثمار ما يقدر بمليون ضعف لما استثمراه (لاكتشاف امريكا) . لقد تعودنا على أن نرى اناسا يسيرون فى السماء ، الى حد اننا اصبحنا الآن عندما نشاهد انجازا جديدا لاقتحام الفضاء على شاشات التليفزيون ، فان معظمنا لا يعبأ

حتى بمشـاهدته . واذا كنا قد فقدنا بعض احساسنا الصحى بالدهشة والعجب ، فانه من الصحى أيضا أننا لم نعد نرى جدارا معتما يفصلنا عن المستحيل .

فى عالمنا الذى يسوده الخبراء ، نجد ان لدى اية جماعة من المواطنين الديموقراطيين دورا جديدا حاسما . فنحن لا نصدق الخبير عندما يقول لنا ان هذا أمر مستحيل ! . ان مهمةالشخص العادى هى الاحتفاظ بروح الشك الملىء بالامل . فهذا دافع الى المغامرة ، وحافز للخيال . وقد أعلن جيفرسون فى خطاب توليته رئاسة الجمهورية اول مرة ، قائلا : « ان الخطأ فى الرأى يمكن التسامح فيه ، حيث يترك العقل حرا لمقارعته » . وبنفس الطريقة لا حاجة بنا مطلقا الى الخوف من « دوجماتية » الخبراء ، أوالغلو فى خيالنا مادام العقل يترك حرا ليكون منشطا لنا ، وما دامت ساحة سوق الفكر تترك مفتوحة للمنافسة .

بعد مضي قرنين من الزمان على مولد أمتنا ، اكدت الامة بطريقة ملائمة ايمانها المشترك ، الا وهو الحقائق المقررة فى اعلان الاستقلال والدستور . لقد تقاسمنا ــ فى سعادة ــ هذا الايمان مع الآخرين ولشد ما يلفت النظر بقاء ذلك الايمان الامريكى فى اواخر القرن العشرين . وذلك لان هذين القرنين شاهدا اكبرطوفان تكنولوجى فى التاريخ ، كما سمعا مجموعة شديدة الاغراء من الايديولوجيات والادوية العامة لكل داء . وتقول المجتمعات القديمة ــ الاكثر تقلبا والاكثر برما ــ أننا لم نكن شجعانا ، بل نتصف بالعناد فحسب .

اننا خلال هذين القرنين حافظنا ــ بصفة عامة ــ على الايمان المعلن فى اعلان الاستقلال ، والدستور . نحن نواصل التجربة التى بدات فى القرن الثامن عشر . وقد رفضنا أن يثبط عزمنا من قبل اكثر الرافضين اتساما بالاحترام . فهم يقولون لنا انه لم يحدث قط من قبل أن كانت هناك « أمة الامم » . كما يقال لنا ان بحثنا المتحمس عن المساواة فى الفرصة جهد لاطائل منه ، ولكننا اذا كنا

اكثر جدا من اية دولة قبلنا فى الكشف عن عيوبنا ـ واكثر خبرة ومهارة فى الاعلان عنها ـ فان ذلك يشهد أيضا على اعتقادنا بأن كل جيل من الامريكيين يجب أن يعثر على طرقه الخاصة فى التجربة.

لقد بدأنا كأرض من نوع آخر . وما من شيء جعلنا اكثر تميزا ، أو جعلنا اكثر بعدا عن الطابع الاوروبى ، سوى عدم ايماننا بالمستحيلات القديمة المدعمة بالوثائق القوية . ففى كل يوم نتلقى دعوات لنجرب شيئا جديدا . وما زلنا نعطى الاجابة الامريكية التقليدية المليئة بالحيوية قائلين : ((لم لا ؟))

هــذا الكتــاب

فى هذا الكتاب الممتع يقدم لنـــا المؤرخ الكبير « دانييل بورستين » ـ الحائز على جائزة (بوليتزر) العالمية الشهيرة ـ تأملاته الوضاءة حول المعنى الجديد للتكنولوجيا الحديثة كما تطبق فى أمريكا ، أكثر دول العالم المعاصر تقدما فى هذا المضمار (الى الدرجة التى جعلت المؤلف لا يتردد فى ان يطلق على أمريكا وصف « جمهـــورية التكنولوجيــا » ، بعد ان كانت « جمهورية افلاطون » هى رمز التقدم السياسي فى عصر الاغريق !)

والباحث الكبير « بورستين » يقدم للقـــارىء فى هذا الكتاب رأيا جــديدا جريئـــا فى نوعين من الثورات : الثورة السياسية ، والثورة التكنولوجية . ويوضح كيف ولماذا تختلف كلا الثورتين عن الأخرى ، وكيف ان الثورة التكنولوجية ستمضي فى طريقهـــا قدما ، بحيث لا يمكن الرجوع فيها ! واذا كانت أمريد اليوم هى المركز الذى تشع منه القوى التى تتجمــع فى بؤرتها كل الخبرات البشرية ، من كل مكان ، فان انتشار التكنولوجيا من شأنه أن يحدث تجانسا بين ثقافات الجنس البشرى ، ونوعا من المساواة بين الدول الكبيرة والصغيرة .. أما « الحواجز » التى يقيمها بين الدول اختلاف الايدلوجيات ، أو القوميات ، أو الأديان ، وروح التعصــب والعنصرية والاضط والنعرات القومية وقيود الهجرة والنقد وســواه فانها ليست سوى حواجز « مؤقتة » يشرحها المؤ فى كتابه هذا ، موضحا انهـــا لن تلبث ان تزول أو تذوب وتنصهر بفعل قوى التكنولوجيا التى س ننتصر فى النهاية !